رواية

الأُسْتَاذ

مُضر آل أحميّد

الأُستَاذ

مُضر آل أحميّد

لا يحق للأفراد ولا المؤسسات التربّح من هذا العمل.

مضر آل أحمد

الى تُراب المَوْصِل..

هُناك، حيثُ ترقدُ والِدَتي..

مرّ عامان منذ تركت بغداد. لا تزال رائحة دجلة المختلطة برائحة السمك «المسگوف» في كازينوهات ابي نواس تعاودني بين حين وآخر. الرائحة هنا مختلفة، غريبة عمّا تعودت عليه في كليّة العلوم السياسية في جامعة بغداد؛ غريبة عن رائحة العشب الذي غزته رشّاشات الماء طوال الصباح. ولكن لدي هنا ما لم يكن لدي في بغداد. لدي الأمان، او هكذا أحسب. ولربّ ضارة نافعة، ربما كان مقدّرا عليّ أن اترك العراق بتلك الطريقة. ربما كان مقدرا علي أن اعادي ابن احد قادة الميليشيات فتتغير حياتي تماما. خزين من «ربما» لا يكاد ينفد مع كل وقت الفراغ هذا.

ولكني لا أؤمن بأنّ مستقبلي مقدر لي، أو علَي. لا أؤمن بأن ليس لي يد في ما حصل لي. ربما لو طأطأت رأسي الى الأسفل وتقبلت الإهانات التي اصدرها ذلك المتخلف لما كنتُ مطلوبا بتهمة الإرهاب في بلدي، لما كنتُ مطلوبا في مدينتي، بغداد. انّ كلّ ما حصل لي كان من صنع يديّ. فأنا الذي لم أرضَ الإهانة كما يفعلها كثير من أخوتي في المواطنة. أنا الذي أخذتُ دروس العلوم السياسية على محمل الجد. وأنا الذي صدّقت الأساتذة الذين صدعوا رأسي بحديثهم عن الحقوق والحرية والعدالة، فيما التزم أشجعهم السكوت إزاء التُهم التي لُفقت لي داخل الحرم الجامعي قبل أن تجد طريقها الى مديرية مكافحة الإرهاب.

كان اليوم الذي غادرت فيه بغداد يوما كئيبا قاتما. لم أقو على الالتفات لأودّع بغداد عبر نافذة السيارة الخلفية. بل اكتفيت بمراقبتها في المرآة الأمامية والعاصفة الترابية تبتلعها شيئا فشيئا حتى لم يبق الا بضع أضواء من أعمدة الشارع البعيدة تجاهد أن تنعكس على المرآة في محاولة لإضاءة صورة بغداد. لم يسعف بغداد، ذلك اليوم، تاريخها ورشيدها وحضارتها وكتبها أمام تلك العاصفة. فتلك كانت بغداد ساكنة راضية بما يحدث لها ولأهلها، نائمة تحت الغبار. ربما ستوقظ بغداد أهلها يوما لينفضوا عنهم وعنها كل ذلك الغبار؟ هذه «ربما» اخرى اضيفها الى الخزين.

كل ذلك أصبح من الماضي، بغداد، عائلتي، الكلية، «قدوري أبو الباگلة»، أصدقاء الشيشة او «شلّة السوء» كما كانت والدتي تحب تسميتهم، كُتب «علي الوردي»، جهاز الحاسوب الذي جمعتُ عليه جلسات «رياض أحمد» الخاصة، ولقاءات «كاظم الساهر»؛ كل ذلك بدأ يتلاشى من ذاكرتي مع ركوبي السيارة التي هربت بي من بغداد لتدخلني سوريا. لم تكن سوريا هي الأخرى في أحسن حالاتها، ولذلك فقد رتب لي والدي البقاء عند أحد معارفه بالقرب من الحدود العراقية. وبعد يومين من نزولي عند مضيفي، سألته عن موقعنا وفهمت، بعد ان لخّصتُ حديث الساعتين الذي ألقاه علي، أننا بالقرب من الحدود مع نينوى. لم يكن عندي هناك من وسائل اللهو الا بعض الصحف السورية التي جمعها

مضيفي لتستخدمها زوجته في اشعال تنور الطين بعد آذان الفجر من كل يوم، أو لوضعها تحت مائدة الطعام. تألف بيت مضيفي من ثلاث غرف، واحدة له وزوجته، وغرفة صغيرة هي غرفتي حيث أنام وأضع حاجياتي القليلة، وغرفة المعيشة حيث نأكل ونجلس وينام أولاد مضيفي الستة. كنت أحس بمقدار الاحراج الذي أسببه لمضيفي وعائلته، وإن كان يغضب ويحمرّ وجهه عندما أذكر له ذلك، ولذلك كنت أقضي معظم النهار خارج المنزل. لم يكن احساسي بأني عالة هو السبب الوحيد في رحلاتي اليومية بعيدا عن المنزل، فقد كان اولاد مضيفي مزعجين جدا. كانوا يتعاركون لأي سبب، فإن لم يكن هنالك سبب اختَرَعوا واحدا. كنت احاول خلال رحلاتي الاستكشافية لمزرعة مضيفي الصغيرة أن اصادق كلبهم الضخم الذي لم يبدِ يوما أي اهتمام في مصادقتي. ولم أفهم أبداً لماذا يقطّعون آذان الكلاب في الريف؛ ولم أستطع سؤال مضيفي لكي لا تهتز الصورة التي وضعها عني في مخيلته بأني أعلم كل شيء حتى أصبح هو وجاره وعائلتاهما لا يخاطبونني بإسمي وإنما «الأستاذ». ومع اني لم أستحقها، فلم اكمل عامي الثالث في الكلية، ولكني اقرّ بأن سماعها كان يبعث فيّ نشوة خفيفة. «الأستاذ»، يا له من لقب.

في أحد الأيام، أخبرني الأبن الأكبر لجار مضيفي بأنه قد يكون لديه الحل لمشكلتي، وأني قد يكون بإمكاني العودة الى العراق. وفي الثواني التي مضت

وهو ينتظر أن أسأله متلهفا عن الكيفية، تسارعت صور العراق في مخيلتي صورة بعد صورة وكأنها اغنية من أغنيات «جعفر الخفاف» ولكن دون صوت؛ فقد سبقت صورةَ الجسر المعلّق صورة لعجائز يبعن الخضار في منطقة «العلاوي»، وتلتها صورة جنود يرقصون بملابسهم العسكرية احتفالا بانتهاء الحرب. صورة المزارعين يحصدون الحنطة، والنساء يتبرعن بالحلي الذهبية دعماً للمجهود الحربي وأملاً في المساهمة في حملة إعادة اعمار ما خرّبته الحرب؛ حتى أنّ صورة جعفر كانت من ضمن الصور. التفتُّ الى ابن الجار ورسمت على وجهي تعبير الاهتمام في محاولة مني لإخفاء اللامبالاة المدفوعة بعدم التصديق وسألته: كيف ذلك؟

«سمعتُ من بعض الأشخاص أنّ فصائل المقاومة العراقية يجهّزون لقلب السلطة في العراق بالتعاون مع بعض الفصائل العاملة في سوريا، وأنهم قد فتحوا باب التطوع للشباب، والأولوية للعراقيين.» ردَّ وألقُ البشرى يعلو وجهه.

لم أجبه، فخلال العامين الذين قضيتهما في تلك الانحاء كنتُ قد سمعت الكثير من الأخبار التي يتناقلها اهل المنطقة الذين يعمل أكثرهم في تهريب الناس والبضائع بين العراق وسوريا وتركيا؛ ولكني دون شك قضيت ليلتي أفكّر في احتمالية عودتي الى العراق. اعادت لي الأفكار مواويل «رياض

احمد» التي كنت قد نسيتها. اعادت لي آهات «كاظم الساهر». اعادت لي رائحة دجلة و «المسگوف». ربما لو لم أهرب من العراق وسلمتُ نفسي للشرطة وشرحت لقاضي التحقيق القصة كما هي، لجرت الأمور على خير ما يرام؟ لا، لا، على من أضحك؟! ما كنتُ لأكون الاستثناء الذي يستفيق فيه ضمير القاضي أمام بطش الميليشيات، فالرجل ان لم يكن منهم، كان عليه أن يحمي نفسه وعائلته منهم.

فكرتُ جدياً بالانضمام الى احدى تلك الفصائل، فلربما كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لأعود فيها الى العراق. وقد اتمكن بعد ذلك من ترك الفصيل والاستقرار في مكان ما من شمال العراق بعيدا عن سطوة الميليشيات حتى يصبح العراق دولة قانون مرة أخرى. ولكن كان علي أن أتحقق، ولو قليلا، من تلك الفصائل. فلم أرد أن ادخل دوامة الجماعات التي تقاتل بعضها بعضاً متناسية اهدافها المعلنة المشتركة. سألت ابن الجيران عن مصدر اخباره تلك، فدلّني على المكان الذي يجتمع فيه شباب المنطقة للتدخين ولعب الورق. ذهبنا سوية الى المكان. ألقينا التحية على نحو عشرة تتراوح اعمارهم بين حوالي السادسة عشر والخامسة والثلاثين كانوا يجلسون

في حلقتين. ردوا علينا التحية ودعوننا للجلوس، فجلسنا. وتوالت عبارات «الله بالخير»، «الله بالخير استاذ».

«الله بالخير جميعا.» رددتُ عليهم.

قدّم لي أحد الشباب سيجارة. «لا أدخن. شكراً حبيبي» رفضت بأدب. لم أكن ادخن السجائر؛ فقد كنتُ من هواة الشيشة. لم يسحب يده. إلتفت احد الأربعة الذين كانوا في حلقة يلعبون الورق، وكان يبدو أنه اكبر الحاضرين، وسأطلق عليه اسم «دليلي»، ونظرَ اليّ بعينين قد احمرَّ بياضهما من دخان السيجارة المتدلية من طرف فمه وقال «لابدَّ أن تأخذ السيجارة. هنا ليس كالمدينة، لا يجوز أن تردّ يد أحد.» وعاد الى لعبته. أردت أن ابيّن له أنّ المدن لم تعد مدناً. وأنّ لا فرق بقي بين المُدن وريفها إلا بعض الأبنية، ولكنني آثرت كسب ودّهم على قول الحقيقة. أخذت السيجارة. أشعلها لي أحدهم وبدأنا نتجاذب اطراف الحديث. وبدأتُ اكسب ثقتهم. وبدأتُ التدخين منذ تلك الليلة، العادة التي لا أظنها ستفارقني.

انقضى يومان او ثلاثة قبل أن أحسّ بأنّ الوقت قد أصبح مناسبا لأسأل الشباب عن الموضوع الذي تعرفت عليهم لأجله. كنّا جالسين على صف من الطابوق فيما وقف امامنا الأربعة الذين كانوا يلعبون الورق.

سألتهم «لماذا تركتم لعب الورق؟»

اطلق الجالسون قهقهات الاستهزاء، ثم بعد ثوان أجاب احد الواقفين بأنهم، وبعد اسابيع من اللعب، اكتشفوا ان رزمة ورق اللعب كانت تنقصُ ثلاثة اوراق. استغرقت دقيقة صمت ثم قلت لهم مستشيراً «شباب، اربد أن أسألكم عن أمر ما.»

«بالطبع، اسأل.» ، «تفضّل، استاذ.» ، «نُجيب بما نعرف، استاذ.» تعالت أصواتهم وكأنهم مشتركون في برنامج مسابقات.

«ماذا تعرفون عن الإشاعة القائلة انّ هنالك مجاميع مسلحة تستعد لعمليات واسعة في العراق؟» سألتهم مجيلا نظري بينهم.

«إنها ليست اشاعة.» قال احدهم.

«نعم، لقد بدأت عملياتهم داخل العراق بالفعل، وهم الآن في انتظار الوقت المناسب لدخول العراق والاطاحة بالحكومة ومسؤوليها الفاسدين ورئيسها الطاغية.» أضاف آخر بحماسة لم أرها عند كثير من العراقيين.

«هل هم من الجماعات المتطرفة؟» سألت.

«كلا،» أجاب دليلي، «هؤلاء مختلفون جدا عن اولئك. اولئك تكفيريون، أمّا هؤلاء فأكثرهم عسكريون علمانيون، وهم رجال دولة وليس لهم في الدين الا القليل..»

«ليسوا من اولئك، ولكنهم متحالفون مع من هم أسوأ.» قاطعه احد الجالسين، وأضاف «ولست أفهم كيف يتحالف الأعداء ههنا في سوريا ليصبحوا حلفاء في العراق! يذبح بعضهم بعضاً هنا على متر مربع من الأرض في النهار، ويجلسون معاً في الليل يخططون ملامح عملهم في العراق.»

تحوّل النقاش، الذي بدأتُه بسؤالي، الى معركة بالألسن بين من يرى ضرورة التغيير وإن كان الثمن غاليا وبين من يرى أن الخنوع لأقل الشرين أسلم؛ بين من يرى أنّ الدين يستغلّ السياسة وبين من يؤمن أنّ السياسة تستعمل الدين. سلّمت عليهم. لم يسمع صوتي الا اثنين او ثلاثة من الذين لا

يهمهم الموضوع فردّوا السلام، ثم انطلقت الى المنزل. استلقيت على الفراش. حاولت النوم فلم استطع. بدأت بتقليب الأمر، لماذا اريد العودة الى العراق؟ هل هي تلك الرغبة المحمومة فقط؟ نفس الرغبة في شرب الماء بعد قيلولة في ايام صيف بغدادي؛ نفس الرغبة في احتضان ذراعيك وحمايتهما من نسمات الفجر القارية في هذه الأرض الخلاء. أو ربما هو الحنين إلى الألفة والانتماء، ربما هو الحنين الى حيث يعرف الجميع اسمك؛ حيث إن اخبرتهم باسم والدك وعمله يبدئون تلاوة تاريخ عائلتك على مسامعك. هو الحنين الى حيث يعرف صاحب المخبز كم رغيف جئت لتأخذ، وموعد مجيئك المعتاد فيردّ عليك التحية وهو يعدّ الأرغفة لك دون سؤالك. إنّه الحنين الى الوقت الطويل الذي تستغرقه للعودة من المخبز لأنّ هذا الجار أو ذاك لا يفتآن يوقفانك ويسألان عن احوالك واحوال والديك. أو ربما هو شيء آخر. ربما هي الرغبة في العودة وتصحيح بعض الأخطاء أو المشاركة في ذلك. ربما.. ربما.. ربما.. ومع صوت مؤذن الفجر، نمتُ بقشعريرة سرت في اطرافي، بعثتها فكرة العودة الى العراق.

استيقظت وقد حزمت أمري تقريبا على الانضمام الى تلك الفصائل، ولكن بعد أن اسمع منهم مباشرة. ذهبت الى مجلِس شباب المنطقة وسألت دليلي،

بمعزل عن الآخرين، فيما اذا كان بإمكانه أن يدلني على «مركز التسجيل». ترخّص من البقية وامسك ذراعي وبدأنا السير. في طريقنا الى «أحد معارفه» الذي يعمل مع «الجماعة» بدأ دليلي بالتعبير عن فرحته «بقراري الشجاع».

«ليس هنالك شرف أعظم من جهاد الطغاة والقتال في سبيل الوطن، والموت لأجله.» قال ينصحني، وكأنه قد خاض المعارك والملاحم.

«وهل تعلمّت ذلك خلال ساعات لعب الورق والتدخين؟!» سألتُه.

«يا صديقي، الوضع هنا في سوريا مختلف عن الوضع في العراق. فهنا الجميع يقاتل الجميع، والجميع حليفُ الجميع. أمّا عندكم في العراق، فالصورة واضحة. أنتم تقاتلون حكومة ولائها ليس للعراق.» ردّ بنبرة واثقة.

لم أجبه. وعلى الرغم من حقيقة أنّ الحكومة في العراق ولائها للجميع الا الشعب، إلا أن الوضع في العراق ليس بالبساطة التي يظنها «صديقي» السوري. فالرايات في العراق ضائعة أيضا. والجميع في العراق عدو الجميع وحليفه أيضا. استغرقتُ في هذه الأفكار طوال مدة سيرنا الى وجهتنا فلم اسمع من كلام دليلي الا «ها قد وصلنا».

«السلام عليكم!» القى دليلي التحية على ثلاثة كانوا جالسين في غرفة صغيرة مظلمة الا زاوية منها يدخل اليها ضوء الشمس عبر نافذة مربعة على أحد جدرانها.

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!» ردّ من كان يبدو انه أرفع الثلاثة مركزاً فيما تلاشت أصوات الاثنين الأخرين خلف صوته الجهور.

«الأُستاذ من العراق. يرغب في الانضمام اليكم بعد أن يسمع منكم.» وجّه دليلي الكلام لأبي الرُضوان (علمت انّ تلك كُنيته فيما بعد).

«اتركوني والضيف لوحدنا.» أمر ابو الرُضوان تابعَيه.

«انا أخرج أقضي بعض الحاجات أيضا. أعود بعد نصف ساعة وأنتظرك في الخارج.» قال دليلي، و ألقى علينا التحية وخرج.

انتقل ابو الرُضوان من كرسيه التي كان يجلس عليها خلف منضدة صغيرة الى مقعد خشبي لا يرتفع كثيراً عن الأرض بعد أن دعاني للجلوس أمامه.

– أهلا وسهلا بالأستاذ. حيّا الله العراق وأهله. من أي مناطق العراق؟

سألني بإبتسامة عريضة كانت مع كل ما تحمله من ودّ وترحاب تبدو مريبة بعض الشيء.

- من بغداد.
- حيّاك الله! حيّ الله أرض الخلافة، عاصمة الدنيا ومنارة العلم! وما الذي جاء بك الى هذه الديار؟
- الميليشيات الطائفية وتصرّفاتها.
- لعنَهم الله. هؤلاء الفرس الرافضة الأنجاس. الفرج قريب بإذن الله وبهمّة المجاهدين.

لم يعجبني اختيار ابي الرضوان لكلماته. فقد سمعت مثل تلك العبارات التي قلّما كان مطلقوها مدافعين عن الحقوق والحريّات. وفيها من الخلط بين الميليشيات التي تعمل لحسابها او لأجندات دول اخرى– الفرس، كما أحبَّ ابو الرضوان الاشارة اليهم– وبين «الرافضة» الذين يقصد بهم أمثالُ ابي الرضوان كلّ الشيعة. الذين يقصد بهم أمثال ابي الرُضوان اصدقائي من «شلّة السوء»، وزملاء الكلية، وطالبة المرحلة الأولى التي كنت أنوي تتويج ابتساماتها نحوي ودلعها في حضوري بالذهاب والحديث اليها. ليس لي اعتراض على التسميّات التي عفا عليها الزمن. ولكنّ ما حملته تلك التسميّات من معاني الإقصاء وتطلّعات السيطرة والتغييب هو ما ترك في

نفسي شعورا بالنفور من أبي الرضوان. وما زاد الطين بلّة هو استخدام ابي الرُضوان لكلمات مثل «لعنهم الله» و «همّة المجاهدين»، حيثُ أنّ تلك الألفاظ وإن كانت مُعشعشة في لغة المجتمع الشرقي عند حديثه عن علاقته بالآخرين، يُشير استعمالها بتلك الوتيرة الى ميل او قابلية ميل لجماعات اليمين المتطرفة على وجه الخصوص.

تحاملت على نفسي لأستطيع إكمال الحديث. قاطعته وبدأت اسأله:

- من أنتم؟ من حلفاؤكم؟ ما هي خططكم للعراق؟ ما هي المتطلبات التي يجب أن يمتلكها أعضائكم؟ وما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في المنتمين لكم؟

حاول أبو الرُضوان التستر على الغضب الذي اعتراه بعد سيل الأسئلة بمدّ ابتسامته الى اذنيه، وبدأ الحديث:

- نحنُ لفيف من المجاهدين الصادقين– ولسنا نزكي انفسنا– الذين يريدون الخير لوطنهم العراق، وسائر البلاد الإسلامية. أمّا حلفائنا فهم كلّ من يسهل لنا مهمتنا. وخططنا للعراق جعله دولة عظيمة تعيد امجاد الخلافة الاسلامية وتحكم بشرع الله وتقيم العدل. وأمّا شروط الانتماء فهي بسيطة يسيرة: فبعد الإخلاص لله تعالى

وصفاء النيّة يشترط على الأخوة المجاهدين أن يكونوا متواضعين، مخلصين لقادتهم لا يعصونهم، صادقين مع الله قبل الناس، شجعانا لا يخافون في الله لومة لائم. والصلاة الصلاة، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر. ويجب على الأخوة المجاهدين الالتزام بتعاليم الدين الحنيف وأخلاق السلف، فلا يقربوا المنكرات كالتدخين وغيرها من الكبائر..

واصَل ابو الرُضوان سرد "الكبائر" و "الموبقات" فيما رحلت أنا بفكري اشاور نفسي حول نقطتين. فحديثه عن الصلاة وكأنّ الدين يُختصر بها ليس مقنعاً، ربما هو كذلك لمن يرَون أنّ اجتماعهم في المسجد للصلاة يكفّر عن كل الخطايا الأخلاقية التي ارتكبوها ويرتكبونها بحق انفسهم، وبحق اخوتهم في الإنسانية، وبحق الحيوانات حتى؛ أمّا بالنسبة لي، فلا أستطيع التسليم أنّ الأنبياء والرسالات جاءت لتعليم البشرية كيف تقيم الصلاة. وهل يُعقل أن نعيد العراق لكونه «دولة عظيمة تعيد أمجاد الخلافة الإسلامية» بالصلاة وحدها؟ ألَن نحتاج الى امور كالعلوم، والفلسفة، والفنون، والأخلاق؟ فإن كنّا نحتاج لتلك الأمور، لماذا لم يذكر أبو الرُضوان الفنانين والعلماء والفلاسفة والأُدباء الذين التحقوا بهم؟! ثمُّ ماذا يقصد بـ «أخلاق

السلف»؟ أيّ سلف ونحن نختلف في تاريخ اباءنا؟! فكيف بمن لم نعلم عنهم شيئا الا ما يرويه رواة التاريخ!

أمّا النقطة الثانية التي أقلقتني حقا، والتي قد تكون النقطة الأهم، هي ذكر ابي الرُضوان للتدخين ضمن «الكبائر». العادة الجديدة اللذيذة التي جعلت مركز الإدمان في دماغي يصطنع الأسباب ليقنعني بألّا التحق بالجماعة. ولكني كنتُ قد اتخذت قراري قبل أن ادخل على ابي الرُضوان، فما كانت طلباته لتردّني عن مبتغاي. وكلمّا كان ابو الرُضوان يضيف الشروط، كانت صورة العراق تُسهّل عليّ هزّ رأسي قبولاً.

سألني ابو الرُضوان فيما اذا كنتُ أعرف كيفية استخدام السلاح؛ فأجبته بالنفي. أكدّ لي أنّ ذلك لن يشكلّ عقبة فقد هيئ «الأخوة» معسكراً لتدريب «المجاهدين المهاجرين» الجدد امثالي. ثم طلب مني أن أختار إسماً حركيّا ليكون كُنيتي. أخترت «أبو ليلى». فأفرح ذلك ابا الرُضوان لسبب غاب عن علمي، ولا أظنه نفس السبب الذي اخترت الاسم لأجله، فقد اخترت ذلك الاسم تيمُنا «بابي ليلى الزير سالم» لا غيره.

نهض ابو الرضوان عن مقعده وتوجه نحو كرسيّه خلف المنضدة بنشاط. تناول سجلاً من على رف مثبت الى جانب المنضدة، فتحه على صفحة

مُعلّمّة بالمسطرة، فوجدها ممتلئة. قلب الصفحة وبدأ يخطط صفحة جديدة. وأخذ يسألني عن بعض المعلومات و يكتب:

الاسم: أبو ليلة البغدادي

الجنسية: عراقي

الدراسة: علوم سياسيّة

المركز: جُندي..

صدمة أُخرى أضافها ابو الرضوان عند كتابته كُنيّتي الجديدة «أبو ليلة». لم أعترض، فبعد جميع أخطاء الفكر والأسلوب التي تخللت حديث ابي الرضوان، ما كان جهله بقواعد الإملاء ليشكل عقبة صعبة أمام عزمي.

أخبرني أبو الرضوان أنه سيتصل بي حالما يحين موعد التدريب، وأنّ عليّ أن أُهيء نفسي للرحيل الى المعسكر. «مع السلامة» حييّت أبا الرضوان وانا أهمّ بالخروج، «وعليكم السلام» ردَّ التحية. نظرتُ اليه للحظة، ثمّ أدرت وجهي وخرجت من عنده. كان دليلي في الخارج يتحدث الى رجلٍ في

منتصف الأربعينات، أو نهايتها. رآني أخرج. ترخّص من الرجل وانضّمَّ إلي. «من هذا الرجل؟» سألتُه.

«لا أعلم. لكنّه كان يسأل عنك.» ردّ دليلي. لم يثر الأمرُ فضولي. بقيت صامتاً طوال الطريق، أفكّر بالمعسكر، وبالتدريب، وبأبي الرضوان، وبالمستقبل؛ ولاشكّ، بالعودة الى العراق.

مضى يومان ولم يتصل بي أحد. قضيت اليومين بالتفكير والتأمل ورسم مستقبلي بالنظر الى سقف الغرفة، او الالتحاق بشباب المنطقة والتدخين صامتاً استمع الى حواراتهم التي لم تكن تخلو من بعض الفلسفة. القيت عليهم التحية، وانطلقت عائدا الى المنزل مع غروب الشمس. توقفت والتفتُّ مجيباً نداء أحد الشباب. «استاذ.. استاذ، هنالك رجل يسأل عنك».

«عني انا؟! اين هو؟» سألتُ وقد تمثّل أبو الرضوان في مخيلتي بلحيته وابتسامته.

«انه جالس عند الشباب.» ردّ عَلَي.

عُدنا الى حيث يجلس الشباب. رأيته من بعيد. لم يكن أبا الرضوان، بل كان الرجل الذي وقف في الخارج يتحدث الى دليلي.

«السلام عليكم» القيت التحية على الجميع.

ردّوا التحية لـ «الأستاذ». بقي ذلك الرجلُ صامتا، واكتفى بالنظر اليّ وعلى وجهه ابتسامة لا تكاد تكون ظاهرة، ولكنّها كانت أكثر تطمينا من ابتسامة ابي الرضوان. نهض عن صفّ الطابوق الذي كان يجلس فوقه الى جانب باقي الشباب. تقدّم إلي. وضع كفّه فوق كتفي. وطلب منّي السير معه. بدأنا السير، وبدأ هو بالحديث:

– يا أهلا ومرحبا بالأستاذ. انا أبو سعد. لقد قرأتُ معلوماتك المسجلّة عند أبي الرضوان..

أخرج علبة سجائر من جيب سترة بلا اكمام تبنية اللون كان يرتديها فوق قميص رمادي. قدّم لي سيجارة. ترددتُ قليلا. نظرتُ اليه وأخذتها. أشعلها لي وأشعل سيجارة لنفسه.

سرت الى جانبه بصمت فيما راح يدمدم لحناً ريفياً ذكرني بشارة البداية لبرنامج «المجلة الزراعية».

- هل كنتَ مجتهدا في الكلية؟
- نعم، من بين الأوائل.
- جميل. كيف هي لغتك العربية الفصحى؟

- ممتازة، قياساً بأكثرية متحدثي العربية.
- حسناً، ما رأيكَ أن تأتي للعمل معي؟ لن تحمل سلاحاً إلا في حالات الضرورة القصوى. لن تدخل معركة. سيخصّص لك مكتباً، ومرتباً شهرياً. وستكون حياتك مملّة كحياة أيّ موظف مدني.
- وأبو الرُضوان؟ وهل تعني العمل معك هنا، ام في العراق؟
- دعكَ من أبي الرضوان. وسيبدأ حساب مرتّبك من الآن. ولن تبدأ العمل حتى ندخل العراق.
- أيمكنني التفكير بالعرض الى الغد؟
- لا، اريد ردّك الآن.

أخرَج سيجارة اخرى. أعطاني. اشعلَها لي «ولستُ كأبي الرضوان. ليس مشروطا عليك الصلاة، او الصيام..» غمز بعينه، «أو تجنّب الكبائر، كالتدخين. الشرط الوحيد الذي ينبغي توفره فيك هو الولاء.»

نظرتُ اليه قليلا، وافقتُ على عرضِه.

- ماذا عن اسمي ومعلوماتي عند أبي الرضوان؟

«لم تعُد موجودة.» قالها وقد علت وجهه تكشيرة تُخبرني بأنّه له سلطة تعلو سلطة أبي الرضوان بمراحل.

أعطاني رقم هاتف أتصلُ عليه عند الضرورة فقط. واخبرني بأنّ مرتّبي سيصلني بوقته. وأنّ استعدّ للرحيل في أيّ يوم من أيام الشهرين المقبلين.

لم اتابع التلفاز كما يفعل مضيّفي وكل عائلته. فقلّما يشاهد شيئاً عدا القنوات الإخبارية. حتى أنّ زوجته قد تعوّدت على تلك القنوات، فأصبحت ترفع صوت التلفاز وتذهب لتكمل أشغال المنزل، وحين تعود الى غرفة المعيشة تسأل زوجها عمّا يحدث. تركتُ التلفاز بعد أيّام قليلة من مغادرتي العراق ولجوئي ههنا؛ فلست استطيع متابعة اخبار العراق دون لوم العراقيين أو لوم نفسي. فمعَ كلّ ما يحيق بهم من ظلم، وما يُسرق منهم من أموال، يبدو أنّهم سيبقون ساكتين قانعين دونما حراك. ومن جهة أخرى، لا استطيع لومهم دون أن الوم نفسي. فها أنا قد هربتُ وآثرت الفرار على المواجهة. ربما لو أنني وقفت في وجه تلك الميلشيا، وسُجنت أو قُتلت لثار أقاربي، ثم زملائي، ثم الجامعة، ثم بغداد، ثم ثار العراق. مَن أخدع؟! آلاف قُتلت، وملايين هُجّرت، وأنا احلم أن اكونَ فتيلا لثورة. لم أشغل بالي كثيرا بتلك الأفكار، ولا بتلك الأخبار. فقد كنتُ أتطلع الى يوم مغادرتي هذا

المكان والعودة الى العراق. كم أنا محظوظ. هنأت نفسي، فها قد أصبح لدي وظيفة لا اضطر فيها لقتل أحد، او ظلم أحد. لا أحتاج فيها التعامل مع أمثال أبي الرُضوان. وفوق ذلك كله، فهي في العراق. ومع أنّي لا أظنّ أني سأعود الى بغداد قريبا، ولكنّ أي مكانٍ من العراق يكفيني، ولو مؤقتاً.

كنتُ جالسا كعادتي في مزرعة مضيّفي في ظل شجرة الزيتون المريضة، وكانت أغصان الشجرة متباعدة متناثرة تستند على ساق أحنى ظهره المرض والأيام، وتحملُ أوراقاً شاحبة لا تقوى على التمسك بأغصانها فتقع خائبة خائرة القوى واحدة تلو الأخرى. كنتُ اقرأ صفحة التسالي في احدى الصحف وأراقب الكلب المستلقي على بطنه وهو يحرك أذنيه المقطوعتين بين حين وآخر ليبعد عنه الذباب الذي لا يكل ولا يمل من العودة لإزعاجه. جاء احد ابناء مضيفي راكضاً يبدو عليه أنه يريد قول شيء مهم. توقف عند اخدود في الرمل كان جدولا فيما سبق، وأخذ ينخس بغصنٍ يابس دودة وهي تحاول الهرب الى الأرض. كانت الدودة تحفر قبرها لتلتجئ اليه هرباً من سطوة هذا الكائن الشرير. ناديته ولم اكن أحفظ اسمه واثنين اخرين من اخوته فقد كانوا يبدون متشابهين بالنسبة لي.

- تعال حبيبي، ما اسمك؟

- اسمي احمد.
- تعال حمودي، اجلس جنبي.

جلس الى جانبي، وبعد وهلة تذّكر ما جاء لأجله.

- عمو استاذ، هنالك رجل يسأل عنك.
- أين هو؟
- عند باب المنزل.

قمتُ من فوري وتوجهتُ مسرعا نحو المنزل. فكرّتُ حينها أنه مرسال أبي سعد وقد جاء ليستعيد مرتّب الشهر الذي تسلمته قبل مدة ويعتذر عن توظيفي، وأنّ مشروعهم في «تحرير العراق» قد فشل، أو تم تأجيله. بدأتُ اقترب من المنزل فرأيتُ ابا سعد وهم يشرب الماء ويعيد الكأس لأحد ابناء مضيفي ثم أخرج علبة السجائر واشعل سيجارة وهو يراقب خطواتي حتى وصولي اليه.

بدأتُه التحيّة بإبتسامة ترحيب

- السلام عليكم، يا اهلا وسهلا.
- كيف حالك؟ ان شاء الله بخير؟
- انا بخير الحمد لله. لا جديد، نفس الصحف القديمة.

- غداً يتغيّر الوضع. جهّز امتعتك، فغداً مساءاً ننطلق الى العراق.

نظرت اليه بعينين جاحظتين

- حقاً ؟!
- نعم، بالطبع. غداً نبدأ صناعة التاريخ.
- حسناً، ولكن كيف؟ ماذا؟ من؟
- لا تستعجل، ستعرف كل شيء في حينه. في أمان الله.
- في أمان الله.

ركب ابو سعد السيارة التي لم تكن تحمل لوحة ارقام وبدأ سائقه القيادة مبتعداً وأنا اراقب السيارة تتلاشى في الغبار الذي خلفته اطاراتها على الطريق الترابي ورأسي مليء بجميع أنواع الأفكار. حاولتُ شطب جميع الأفكار والتركيز على أنّ ذلك اليوم كان يومي الأخير في ذلك المكان، انّ ذلك اليوم كان يومي الأخير خارج العراق.

عدتُ الى غرفتي. وبدأت اجمع حاجياتي القليلة. وكنت اتوقف اتأمل حياتي القادمة بعد كل قطعة ملابس اضعها في الحقيبة، حتى انتبهت أنّ ساعات قد مضت ولم اكمل حزم أمتعتي بعد.

كان عليّ أن اودع شباب المنطقة تلك الليلة، فقد أصرّ مضيفي وجاره على أن أقضيَ نهار اليوم التالي معهم لأشاركهم الوليمة التي سيعدونها توديعاً لي.

خرجتُ الى حيث يجتمع الشباب. سلّمت عليهم وأخبرتهم موعد رحيلي. تأسفوا وبدأوا يسألون عن الكيفية. تفاديت الموضوع وغيّرته متجنباً الإجابة على أسئلتهم الفضولية. وبدأنا الحديث في امور تضّمنت بطولات لعب الورق والرهانات فيما بينهم، وبنات المدينة اللاتي سألتقيهن في العراق، ووضع الدول العربية المزر وأحوال الشعوب البائسة، والهجرة الى حيث الشقراوات والنقود. لم أنتبه حتى قارب منتصف الليل، فأشعلت معهم سيجارة أخيرة.

حاولت تفادي مراسيم الوداع بتسليمي عليهم والدعاء لهم، إلا أنهم أصروا ان يعانقوني فرداً فرداً، ودعوا لي بالتوفيق وطلبوا منّي أن اذكرهم عندما أصبح وزيراً او مسؤولا في الحكومة المقبلة، وهو ما استقبلته بضحكة استغراب ثم شكر وعرفان. ثمّ أعطيتهم ظهري وغادرتهم وهم يناقشون مستقبلي.

دخلتُ المنزل وكان مضيفي لا يزال يشاهد التلفاز بصوت عال وقد أطفأ ضوء غرفة المعيشة لينام أولاده. سلّمت عليه، وبدأت السير حذراً لئلا

ادوس على احدهم حتى وصلت غرفتي، ودون أن اشعل الضوء، استلقيت على فراشي وقد عادت صور العراق تتلاحق في رأسي حتى أدركني النعاس.

استفقت كالعادة على اصوات صياح اولاد مضيفي. كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحاً. لم البث كما اعتدت طويلا في الفراش، فقد كان أمامي يوم حافل. ارتديت ملابسي وخرجت الى المغسلة الصغيرة المثبتة على الطابوق بجانب باب المنزل حيث كان يلعب ثلاثة من اولاد مضيّفي. غسلت وجهي بماء بارد أنساني حرارة الليلة السابقة وعدت الى غرفة المعيشة حيث كانت زوجة مضيّفي قد أعدت مائدة الفطور لي ولزوجها. كان كلّ شيء في مائدة الإفطار طازجاً. بيض دجاجاتهم، لبنٌ لم يزل دافئا أعدّته من حليب بقرتهم الوحيدة التي كانت وكأنها تُعطي دفقات من الحنان تمزجها مع الحليب، كما لو أنّها تهب الحليب لصغارها العطشى؛ وبالطبع، ارغفة الخبز الطرية التي لم يمضِ على خبزها الا ساعات قليلة.

- هكذا إذن، قد نويت فراقنا؟ ربما لم يطب لك المكوث ههنا؟

قال مضيّفي مازحاً ولم يخلُ سؤاله من انتظار اجابة جديّة.

- نعم، نويت فراقكم، ولكن ليس يدفعني اليه غير الحنين الى العراق.

- يا الله! اتعرف أنّ فرصاً كثيرة قد سنحت لي للرحيل عن سوريا؟ ولكن كيف بي أرحل عن بلدي وأنا لا اقوى على الرحيل عن هذه القرية؟! فهؤلاء اهلي الذين نشأت بينهم، وهذه ارضي الصغيرة التي نأكل انا وعيالي منها، وهذا جاري الذي عرفته منذ كنّا أطفالاً نلعب سوية.
- ربما لو طالتكم الحرب كما طالت سكّان المدن لكان لك رأيا آخر.
- ربما. هيا، أكمل طعامك قبل أن يبرد.

قال جملته وانسحب يشرب الشاي ويدخن السجائر وهو يقلّب قنوات التلفاز حتى استقر على قناة للأغاني.

نظرَ الي نظرة فيها شيء من الخبث والمزاح

- اليوم يوم وداعك، ولن نزعجك بقنوات الأخبار.

مضت الساعات بسرعة في منزل جار مضيّفي حيث تناولنا غداءً دسماً أقعد دماغي عن التفكير. واقتربت ساعة رحيلي في غيبوبة انقضت بين اكواب الشاي وأطباق الحلويّات والفواكه المتتابعة. دخل ابن جار مضيّفي وأخبرني أنّ السيّارة واقفة أمام المنزل. نهضتُ بصعوبة، وبصعوبة أكبر تخلّصت من

الحاح مضيّفي على اعطاءي كيساً ملأته زوجته بالطعام، وخرجتُ ومضيّفي وجاره وعائلتاهما خلفي. التفت اليهم لأودعهم، لكنهم أيضاً أصروا إلا ان يعانقني الذكور منهم فردا فردا. تقدمت نحو السيارة وركبتُ في المقعد الخلفي الى جانب ابي سعد. فتحتُ النافذة ولوحت لهم بيدي اودعهم. وبدأت السيارة تبتعد، وأطفال مضيّفي وجاره يركضون خلفها. كنتُ على وشك الالتفات عندما لمحت كلب مضيّفي يركض الى جانب الطريق وينبح وهو ينظر الي وكأنه يقول «سأشتاق لك». ابتسمت. اغلقتُ النافذة وجلست مديرا الجزء العلوي من جسدي نحو أبي سعد.

كان المغرب قد حلّ والشمس تستعجل أبا سعد ليكمل قراءة بعض الأوراق التي بدا تنسيق الكتابة فيها وكأنها كتب ومخاطبات رسمية. كانت عيناه تتراقصان متأرجحة بين نهايات الأسطر وبدايتها، حتى ارتحلتا تماماً عن أعلى اليمين الى أسفل شمال آخر الأوراق في يده. أكمل ابو سعد القراءة،

فغادرتنا الشمس تماماً وأخذت ضوئها معها. نظر أبو سعد الي، نزع نظارته الطبيّة المعلقة بحبل رفيع حول رقبته، ابتسم وسألني:

- ها، كيف هي معنويّاتك؟
- بصراحة؟
- بالطبع، لا اريد غير الصراحة. وفي جميع الاحوال لديك خياران لا ثالث لهما. إمّا أن تكذب وأكتشف كذبك فأُظهر ذلك أو اخفيه، أو أن تقول الحقيقة وتوفر على كلينا الجهد والوقت.

حدجته وكنتُ اريد أن افهِمه بأنني لا اكذب وقلت له

- حسناً، لست مرتاحاً للفكرة ككل.
- هل من شيءٍ محدد؟
- ربما، لا أعرف. ربما أخاف ان اصبح مثل أبي الرضوان.

بدأ يضحك ويستغفر الله بصوت لم أكد اسمعه

- هلا تركت المخلوق بحاله! ابو الرضوان، ابو الرضوان، ما بالك وايّاه؟! هل تعتقد أنّ ابا الرضوان وُلِد هكذا؟
- لا اعرف، ربما.

- حسناً، اسمع كان لابي الرضوان ثلاثة اخوة، وفي ليلة زفاف أصغرهم أخذتهم الميليشيات من دارهم، بعد بلاغ من أحد الجيران بأنهم ارهابيون.
- وهل كانوا فعلاً ارهابيين؟
- كلا.
- لماذا اذن أبلغ عنهم ذلك الجار؟
- لنفس السبب الذي جعلك تترك بغداد. لأن شجارا كان قد حصل بينه وبين أبي الرضوان.
- ولمَ لم يأخذوا أبا الرضوان؟
- كان قد تأخر وهو يحضر بعض الحاجيّات. تخيّل، أنّ ما أنقذ أبا الرضوان هي نقاط التفتيش العسكرية التي يلعنها الجميع. فقد اوقفوه لساعة لأنّ زجاج نوافذ سيارته كان مظللاً. وهكذا، وعندما عاد الى حيث يقام العرس في دارهم، لم يجد الا النسوة يندبون والأطفال يجئرون وعروس اخيه مذهولة.
- وكم لبثوا اخوته محتجزين؟
- ليس طويلا، فقد اعادوهم الى اهلهم صباح اليوم التالي، او ما تبقى منهم، مغلفين بأكياس القمامة.

- لاشكّ أنّ ذلك صادم ومحزن، ولكنّه لا يبرر تفكير أبي الرضوان وما هو، وأمثاله، قادرون على فعله. لا يجعل كلّ ذلك ما يفعلونه صحيحا.
- هل تظنّ لو أنّ ما حدث لأبي الرضوان حدث معك، لا سامح الله، كنتَ لتفكّر بما هو صحيح وخاطئ؟ هل تستطيع الجزم أنّ البوصلة الأخلاقية لأرباب الخلق الرفيع ستبقى تعمل بانتظام أمام مصائب كتلك؟ وهل تعتقد حقاً أنّ من يُقتلُ أهله امام عينيه، أو يُشوى اطفاله ويُرسلون اليه، او تُغتصب اخته وزوجته وأمه، سيفكّر بجنّة ونار؟! أتعتقد أن مثل ذلك المُبتلى سيضع اعتباراً حقيقيّا لله الذي أصبح يؤمن أنه تخلى عنه في محنته؟!

لم أستطع الردّ على حجّة ابي سعد؛ فقد كان فيها من المنطق ما أثبتته تصرّفات الناس وتعاملهم مع الأزمات والمصائب. التزمت الصمت، وأدرت وجهي اراقب الطريق المقفر، والأشجار القليلة المتناثرة على جانبيه.

- أنا سأنام. وربما عليك أن تنام أيضا، ولو لمدة قصيرة، فالغد سيكون يوماً حافلاً.
- نعم، سأنام؛ فقد أرهقتني كميّة السمن في وليمة اليوم.

ابتسم ابو سعد، وأطفأ الضوء الذي فوق مقعده. أدار وجهه ونام. لم ألبث بعده طويلا قبل أن يدركني النوم، رغم مطبّات الطريق التي كنتُ احس كل واحدة نجتازها تطحن أضلاعي.

فتحت عينيّ وقد طلع الضوء وفي الأفق شريط أحمر يمهد لشروق الشمس ويدعوها أن تعالي فقد بدأ مشهدك. كان ابو سعد قد أفاق قبلي وأخذ يقرأ في اوراقه. طلب من السائق رفع صوت مسجل السيارة، فبدأ صوت القارئ «عامر الكاظمي» وهو يقرأ، ربما سورة «يس»، يصل أذنيّ. لم ينبس أي منا ببنت شفة. ولمحت نفس شعور الحنين الذي اعتراني في قسمات السائق، الحنين الذي لم أتبينه في وجه أبي سعد.

فتحتُ نافذة السيارة قليلا لأتمتع بنسمات الصباح قبل أن تعلو الشمس وتلقي حرارتها على الأرض القفار. بدأت ملامح أبنية متفرقة تلوح بين هنا وهناك.

- أين نحن؟

وجّهت سؤالي لأبي سعد.

- نحن الآن في العراق، في نينوى تحديداً.

أجاب ابو سعد دون أن يرفع عينيه عمّا كان يقرأ. لبث على حاله لدقائق معدودة ثم رتب أوراقه وأعادها في حقيبة جلدية، ووضع الحقيبة عند قدميه تحت مقعد السائق، والتفت اليّ.

- اليوم ستذهب الى منزلك الجديد. الأثاث ولوازم العمل كلّها جاهزة. كلّ ما عليك فعله هو ترتيبها، وربما يحتاج المنزل بعض التنظيف. بكل الأحوال، سجّل ما تحتاجه في قائمة وأعطها للسائق وسيوفره لك.
- هل سأعمل من المنزل؟
- نعم، غالباً. قد تحتاج الخروج بين حينٍ وآخر. لا تفكّر في الموضوع كثيرا، فكل ما عليك فعله هو أن تحيا حياة المواطن الإعتيادية.
- أين سيكون المنزل؟
- ستعلم قريباً. هو في مركز المحافظة، في الموصل. وستكون المدينة مكان عملك.
- ماذا سيكون عملي؟
- أن تكتب.
- أكتب؟ ماذا سأكتب؟ روايات وقصص، مقالات وبحوث؟
- ربما قصصاً وروايات، ولكن ليس الآن. ما اريده منك الآن أن توظف ما تعلمته خلال دراستك. أن ترفع لي تقاريراً عن وضع

المدينة، والناس؛ عن مشاغلهم، وهمومهم. ولتفعل ذلك بمهارة عليك أن تكون مثلهم، عليك أن تكون منهم.

- أتقصد بأنّ وظيفتي أن اكون مخبراً؟
- لا، فالمخبر يرفع التقارير عن أفراد، أما أنت فتكتب عن جماعات. لن تذكر اسماً واحداً، فذلك ليس عملك. وظيفتك ستكون مثل وظيفتي، صانع سياسة.
- وماذا يستفيد الناس من نقلي لهمومهم؟ فالكل يعرف هموم الناس، ولا أحد يحلّ مشاكلهم.
- ستنقل هموم الناس لنحلّ مشاكلنا، وليس مشاكلهم. لا تأخذ الامر بمنحى شخصي. فأنت موظف لدي، وولائك لي. وأنا قد وظفتُ خدماتي لجماعة بعينها، وولائي لها ما دامت مصلحتي معهم. انّ ولاءنا، بالتالي، لباب رزقنا. ولو وظّفونا الناس، لكان ولاءنا لهم. وأنتَ لم تلتحق بي لتساعد الناس، وانما لتساعد نفسك. ولتساعد نفسك، عليك أن تعطي عملك ما يتطلبه.
- متى أبدأ العمل؟
- لقد بدأت بالفعل.

تناول أبو سعد كيساً من الجيب الذي على ظهر مقعد السائق وأخرج منه كيساً ورقياً في داخله بعض الكعك. اخرج ثلاث قطع وأعطى لكل منا واحدة.

- سدّ رمقك بهذه، لم يبقى الكثير حتى نصل المدينة.

قال ابو سعد، وطلب من السائق أن يقف في المكان «الذي يعرفه». وبعد دقائق توقفت السيارة الى جانب الطريق. ودّعني ابو سعد وقال أننا سنلتقي في المساء. نزل من السيارة وانتقل وركب سيارة اخرى كانت تنتظره. فيما أكملنا نحن طريقنا. عندما بدأت أرى أبنية اكثر وأكثر تقترب من بعيد، أوقف السائق السيارة، ونزل وفتح الصندوق الخلفي. تأخر لدقيقة أو اثنتين وأنا احاول أن ارى ما يفعل في الخلف فلم أستطع. انتقل الى مقدمة السيارة وفي يده لوحة أرقام ومفكاً، فعرفت أنه كان يضع لوحات ارقام السيارة. أعادَ المفك الى صندوق السيارة وأغلقه، وعاد الى مقعده وأكملنا طريقنا.

دخلنا المدينة بعد تخلّص السائق ببراعة من محاولة أحد الجنود الواقفين في نقطة تفتيش جرّنا الى نقاش عن العلاقة بين الحكومة المحليّة وحكومة المركز. وصلنا الى جسرٍ على يمين مدخله مستشفى وعلى شماله فندق بدا مهجوراً الا من الأسلاك الشائكة وأكياس رمل على بعض نوافذه. اجتزناه ودخلنا الى منطقة مزدحمة ذكرتني بزحام بغداد.

- أين نحن؟

سألتُ السائق.

- قرب جامعة الموصل.

أوقَف السيارة. وطلب مني البقاء فيها. وترجّل منها وفتح الباب الخارجي لأحد المنازل، ثم عاد الى السيارة وادخلها الى كراج المنزل. ونزلنا من السيارة، فتح باب المطبخ ودخلنا.

كان في المطبخ أشياء قليلة فقط، بضع ملاعق وشوكات وسكّين وأكواب منها ما كان يحتوي على بقايا شاي قد صبغ أسفله. كان في المنزل أكثر من غرفة. ذهبتُ مباشرة الى حمامه، وقد تفاجأت عندما رأيته نظيف مرّتب. خرجتُ وبدأت رحلة استكشافية في غرف المنزل، ثمّ توجّهت الى غرفة الاستقبال وكانت تحتوي على صناديق كارتونية على أحدها صورة منضدة، وعلى الآخر صورة كرسي، وعلى الثالث، الذي كان موضوعاً بمعزل عن بقية الأشياء، صورة حاسوب محمول. وكان في احدى زوايا الغرفة سجّادة ملفوفه ولم يُفتح كيسها بعد. وبموازاة احد الجدران حيث جهاز التكييف الذي لم يزل مغلّفاً كان تراب وقطع احجار ناعمة تغطي الأرضية. استغرقنا ساعتين لترتيب الغرفة التي أصبحت مكتبي. ثمّ انتقلنا الى غرفة اخرى حيث

كان الحال نفسه مع الغرفة الاولى الا انّ هذه الغرفة كانت معدّة لتكون غرفة نوم. انهينا اعداد السرير ووضع الأغطية والشراشف وترتيب الدولاب. وهكذا صار عندي مكتبا وغرفة نوم جاهزين للاستعمال.

كان الظهرُ قد غادرنا عندما فُتح باب المنزل الخارجي ودخل أبو سعد. القى التحيّة وأخذ يتفحص غرف المنزل وكيف أصبح شكل كل منها.

- أكملت؟
- نعم، تقريباً. بقيَ لديَ بعض الأشياء التي احتاج شرائها.
- حسناً، ذلك جيّد. ستكون تلك فرصة لتتعرف على المدينة حيّاً بعد آخر، وتسمع كلام أهلها وتتعرف على عاداتهم وتقاليدهم، وتتعلم فهم لهجتهم. أمّا الآن، فهيّا نذهب نتناول بعض الطعام.

ركبنا السيارة وانطلقنا. كان بعض الطلاب، بزيّهم الجامعي، يسيرون في الشارع المواجه لجامعة الموصل حيث تداخلت محالّ بيع الألبسة والمطاعم ومحالّ بيع الهواتف النقالّة والحواسيب ومكتبات الكتب ومكاتب الاستنساخ. كان الطلاّب مميزين بزيّهم، القمصان البيضاء والسراويل السود والرمادية للذكور، والقمصان البيضاء، والستر والتنانير السوداء والنيلية

والرصاصية للإناث. أشعرني منظرهم بحنين الى كليّتي لم يخالجني منذ تركتها. وذكرتني مجموعة طلبة عبرت الشارع أمامنا بزملائي في الصف ونقاشاتنا الحاميّة، ومزحنا المضحك، ومقالبنا السخيفة. شوّه منظرَ باب الجامعة والطلبة يخرجون منه وهم يوّدعون بعضهم البعض ويفترقون كلّ في طريقه، منظرُ السيّارات العسكرية والأسلاك الشائكة والجنود بأسلحتهم، ومنظرُ طابور طويل من السيارات، علمتُ لاحقا أنه طابور محطة الوقود، لا يكاد يتحرك وجنودٌ يصيحون في الناس أن تحركوا أو قِفوا.

اجتزنا زحام شارع جامعة الموصل وأخذنا السائق من طريق كانت فيه على يميننا منازل يتخللها بين حين وآخر محلُ او اثنان، وعلى شمالنا آثارٌ وسور المدينة التاريخي المهدم وبوابة أثريّة هائلة سُدّ مدخلها بحائط من الطابوق. وكأنّ من بنى ذلك الحائط أراد فصلَ الناس عن تاريخهم، اراد انتزاعهم من جذورهم. وأمام الحائط وعلى جانبي البوابة تشابكت شجيرات بريّة وشوك وأدغال سرقت هيبة ذلك الصرح وجرّدته من كل جلال.

تابعتُ مراقبة المناظر الجديدة بصمت وعينٍ متفحصة، حتى وصلنا الى جامعٍ مهيب ترتقي منارته فوق تلٍ عال مبني على شكل مدرجات من حجر الحلان وأضواء صفراءُ تنير واجهته. وقفت هنالك بضع نخلات باسقات تطالع وجه السماء، ويتدلى بين واحدة وأخرى أشرطة من الأضواء الملونة.

ذكّرني مشهد ذلك الجامع بجامع «الإمام الأعظم» ومرقد «الإمام الكاظم»، فسألتُ أبا سعد عن ذلك المكان، وأجاب أنه جامع «النبي يونس». كنتُ قد سمعت عن ذلك الجامع الكثير، حيث أنّ بعض النسوة كنّ لا يعتبرن حجهنّ مكتملا الا بزيارته؛ فيما كان البعض الآخر ممن لم يتيسر لهم أداء الحج الى البيت الحرام يحجوّن اليه. انعطفت السيارة مبتعدة عن الجامع ولكنني واصلت مراقبته شامخا يحتضن الى جانبه منازل صغيرة من الطين، يسندها ويحميها كأخٍ كبير.

وصلنا الى جسر، وكغيره من الجسور، اقيمت على رأسه نقطة تفتيش. كان الجسر ضيّقا فقد كانت السيارات تسير فيه ذهابا واياباً على الرغم من أنه صُمّم ليكون باتجاه واحد. و كانت سيارة شرطة او جيش توقف السيارات المدنية لتعبر او تصعد فوق الرصيف بين دقيقة وأخرى.

اجتزنا الجسر وأضعت الطريق في زحام السيارات والبشر، وصيحات الباعة لترويج بضائعهم، وصياح الشرطة على الناس، وصياح الناس على الناس. هربتُ بفكري الى منظر جامع النبي يونس وعقدتُ العزم أن ازوره في أول فرصة سانحة. كنتُ منشغلاً بأفكاري عندما توقفنا. نزلنا من السيارة، ودخلنا الى مطعم أثار دهشتي أننا قدنا كل تلك المسافة للوصول اليه، فلم يكن من وجه مقارنة بين ذلك المطعم وبين ما تركناه من مطاعم فخمة قرب

جامعة الموصل. وأظنُ أبا سعدٍ عرَف ما كنتُ افكر فيه، فقد قال مبتسما دون أيّ سياق «إنتظر وسترى».

دخلنا المطعم وجلسنا على كراسٍ بلاستيكية أمام واجهة المطعم الصغيرة، أمام الشارع، وبالطبع أمام المارّة. طلبَ أبو سعد من النادل، والذي كان العامل، وربما ابن صاحب المطعم أيضا فقد كان بين الاثنين شبهاً كبيراً، أن يحضر لنا تشكيلة من المشويّات. وفي فترة انتظار طعامنا الذي بدأ اعداده أمامنا، أخرج ابو سعد من جيبه بطاقة تعريف شخصيّة وأعاطني إيّاها.

- هذه هويّتك الجديدة.
- لماذا احتاج لهويّة جديدة؟!
- لأنك مطلوب.

كان إسمي نفسه ولكنَ اسماء أبي، وامي، والعائلة قد غُيرَت

- أتلِف بطاقة التعريف القديمة.
- ولكن قد احتاجها. سأخفيها.
- أتلفها. وإن احتجتها سأجلب لك واحدة كما جلبتُ لك هذه.
- حسنا. ما اسم هذه المنطقة؟

- اسمها الرسمي «باب الجديد»، ولكنّ أهل المدينة يسمونها «باب اجدّيد».

كنتُ قد سمعت الكثير عن لهجة اهل الموصل المميزة، وأذكر احد زملائي في الإعدادية كان من الموصل وكان يحاول ان يتحدث بلهجة بغداد لنفهم. كنتُ أضحك من تلك اللهجة كثيرا حتى بدأت الكليّة وبدأت اكتب بالعربية الفصحى ورأيت كيفَ أنها أقرب الى الفصحى من لهجتنا. لكنّ معرفتي بالفصحى لم تؤهلني لفهم تلك اللهجة التي راح يتحدث بها ابو سعد مع صاحب المطعم.

- هل أنت من الموصل؟!

سألتُ أبا سعد بذهول

- أنا من كل مكان.

ومع أنّها لم تكن اجابة شافية، إلا أنها أقنعتني ولو في حينها، لأن ابا سعد كان قد تحدث معي بلهجة بغدادية قحّة، كما أنني سمعته يتحدث بلهجة البادية السورية مع شباب القرية حيثُ كنت أعيش.

وضع النادل ثلاثة أطباق أمامنا، واحد فيه قطع البصل المغطاة بالسمّاق، وآخر يحوي قطع قليلة من الخيار والكرفس، فيما كان في الطبق الثالث المغطى برغيف خبز قطع اللحم المشوي، بأنواعه، والطماطم المشوية. بدأنا الأكل وعندها فقط عرفتُ لمَ يفضّل ابو سعد، وغيره، هذه المطاعم الشعبية على المطاعم الفخمة.

- لماذا الآن؟

سألتُ ابا سعد وأنا اراقبه يأكل. أنهى لقمته، وصبّ له كأساً من الماء من وعاء معدني. أنهى كأس الماء ونظر الي

- ما هو؟
- لماذا الآن تحتاج.. او بالأحرى يحتاجون لصانع سياسة؟ فكلّ هذه المدة التي كانوا يعملون فيها في العراق كان لديهم الكثير من المخبرين او العيون أو مهما ينطبق عليهم من تسمية. لماذا يحتاجون الى خبراتك الآن؟
- الأمور لا تبقى على حالها. عندما كانوا يعتمدون على المخبرين كانوا صنفين فقط: صنفٌ موقن أنه يفعل خيراً، وصنفٌ يسعى لجمع النقود تحت غطاء صنع الخير.
- والآن؟

- جاء الصنف الثالث الذي يعطي فرصة العمل لمن هم مثلي.
- وذلك الصنف هو؟
- الصنف الذكي. الصنف الذي يعلمُ أنّ المال خيال يوجد أينما وجدت السلطة.
- وإن كان هذا الصنف ذكياً كما تقول، فلماذا يحتاجون خدماتك؟
- لأسهل عليهم الطريق، وأجعل الناس تؤمن أنهم من الصنف الأول.

دفع أبو سعد الحساب، بعد رفض صاحب المطعم أخذ النقود. توجهنا الى السيارة وركبنا في المقعد الخلفي كالعادة. التفت ابو سعد الي وبدأ الحديث عن أنّه قد أرسل يستفسر عن عائلتي وأنّ اهل المحلّة قد زكّوهم وامتدحوا اخلاقهم، وأخبرني أنهم بخير ولا يحتاجون شيئا. وطلب مني أن اقطع الاتصال بهم حفاظا على سلامتهم. تناول حقيبته من بين قدميه تحت مقعد السائق وأخرج منها كتاباً مغلفا بغلاف ورقي وأعطاني اياه وطلب مني قراءته حالما اعود الى المنزل والتركيز على الفقرات المُعلّمة. أخذتُ الكتاب وقلّبت صفحاته التي كانت على حافاتها آثار الحبر من الاستنساخ المتكرر.

أوصلوني الى منزلي الجديد، وأنزلوني أمام الباب الخارجي بعد أن أعطاني أبو سعد مفاتيح المنزل وهاتفا جوالاً وأخبرني أنّي لن أراه في الأيام القليلة

المقبلة، وأنّ أتصل به في حال حدوث أي طارئ، وأني سأجد تعليمات مفصلّة عن طبيعة عملي على جهاز الحاسوب، وأنّ الاتصال سيكون بيننا عبر الإنترنت.

دخلتُ المنزل، ومع أنه كان مؤثثا أكثر مما كانت غرفتي الصغيرة في سوريا، إلا أنني لم استطع الا الإحساس بالفراغ الذي عكسته جدران المنزل على صدري. كانت زوايا تقاطع الجدران مع السقف تمتص الفراغ والرطوبة فتمتلئ بهما فقاعات الطلاء تحاول حبسهما داخلها لحين من الزمن، ثم تعيدهما الى الناظر: هاك شاركني الفراغ والرطوبة. أعددتُ الشاي، صببت لي كوبا كبيراً وأخذته الى غرفة المكتب وشغلّت الحاسوب وبدأتُ أقرأ الكتاب الذي اعطانيه ابو سعد. «إدارة التوحش»، كان اسم الكتاب، لمؤلفه «ابو بكر ناجي». تصفّحت الإنترنت للحصول على بعض المعلومات عن الكاتب او الكتاب، فعلمتُ أنه اسم مستعار. بدأتُ اقرأ الكتاب وعند قراءتي لبعض الفقرات التي تدل على خبث ودهاء كاتبها، ومدى قدرته على تبرير الأفعال في سبيل الوصول الى غايته المرجوّة، تذكرت حديث أبي سعد في السيارة عن أهلي. هل كان حديثه ذلك بطيب خاطر وحسن نيّة؟ ولكنّ شخصا بمثل ذلك الحذر لا يمكن أن يتكلم لأجل الكلام فقط. هل كان حديثه تهديدا مبطناً بأنه يعرف أين تسكن عائلتي في حال حاولت خيانته؟ ربما؛ في كلتا الحالتين ليس لدي ما افعله حيال الأمر.

أكملت قراءة الكتاب الصغير خلال وقت قياسي وأعدت قراءة الفقرات المعلّمة. تذكرّت اغنيُة أميركية فيها اقتباس يلّخص فكرة الكتاب. كان الإقتباس في تلك الأغنية لقائد عسكري لإحدى حركات التمرّد في اميركا الجنوبية يقول فيه:

نمارسُ إبادة انتقائية للمحافظين والمسؤولين الحكوميين، على سبيل المثال، لخلق الفراغ، ثم نملأ ذلك الفراغ. وكلّما تقدمت الحرب الشعبية، يبدو النصر أقرب.

ولكنّهم مارسوا هذه الإبادة لعقد كامل ولم يبدُ النصر قريباً، على الأقل بالنسبة للبؤساء الأبرياء الذين يموتون يوميّاً لا لسبب الا لتواجدهم في المكان الخاطئ، او الزمان الخاطئ، أو كليهما. كنتُ على وشك البحث عن التعليمات التي يفترض بها وصف عملي لي عندما بدأ النعاس يلقي بثقله على جفوني. نظرتُ الى كوب الشاي الذي لم اشرب نصفه، أطفأت فيه السيجارة التي كانت بيدي وتوجهت الى غرفة النوم. استلقيتُ على فراشي وأنا افكر بتغيير ملابسي. سأنهض الآن. خمس دقائق اخرى وأنهض. ولم أنهض حتى الصباح.

قرأتُ التعليمات وبدأت اطبقها، فبدأتُ اخرج الى الشوارع اسير لمسافات طويلة وكلّما رأيت حشدا يبثون همومهم لبعضهم البعض كنتُ اشاركهم واسألهم وأسمع منهم. جلستُ عند الحلاقين اسمع للناس، دخلتُ الى صفحات الإنترنت اقرأ لهم، ركبتُ الحافلات، ووقفت في التجمّعات وتابعت اخبار المدينة أولاً بأول. حتى أني بدأت افهم الكثير من كلمات أهل المدينة وطريقتهم في قلب حرف «الراء» الى «غين». فعلى سبيل المثال ان اردت ان تميّز موصليّاً عليك التركيز على كلمات مثل: «كغسي» أي كرسي، «غجّال» تعني رجل، و «مخضّغ» للخضار.. وهكذا من الكلمات التي تحتوي حرف «الراء». حتى أني عوّدت نفسي على قول الكلمات التي تحتوي حرف «القاف» كما يقولونها هم، فالسوق عندهم «سوق»، وليس كما عند أهل الريف او اهل بغداد او الجنوب، حيث نسّميه «سوگ». لا اعرف السرّ وراء اتصالي السريع بالمدينة وأهلها، وكأنّي قضيتُ طفولتي ومراهقتي هنا. ربما لأنني، ورغم جميع نقاط التفتيش والمركبات العسكرية والمقرات الامنيّة، شعرتُ فيها بأمان لم اشعر به منذ بلوغي.

مشيتُ في شوارع الموصل كما لم أمش من قبل في مكان آخر. قطعت شارع الجامعة عشرات المرات حتى حفظت المحالّ والمقاهي والمكاتب والمطاعم. زرتُ اسواق وأحياء جانبها الأيسر واحدا واحدا. وجربتُ مطاعم المشويّات

فيها ومطاعم المأكولات السريعة. جلستُ في مقاهي وكازينوهات شارع الغابات المطلّ على نهر دجلة، وراقبت الشباب يلعبون الورق، والدومينو، والطاولة. وزرت جامع النبي يونس الذي عشقته مذ رأيته أول مرة. صعدت درجاته التي لم افلح في عدّها، فكلّما كنتُ احاول عدّها وأنا اصعدها كان يراودني خاطر، او يخالجني شعور يشغلني عن العدّ فلا اعود اعلم اكنت وصلت ثمانين أم تسعين؛ ولكنّي استطعت أن اضع رقماً تقديرياً ربما يكون قريباً للحقيقة، تسع وتسعون، وهو رقم منطقيٌ لعدد درجات جامع. دخلت باحة الجامع وتجوّلت فيه. رأيت قفلاً او اثنين من الأقفال التي تعوّدت النساء وضعها على شبابيك الجامع ومفاتيحها فيها ليأتي أحد ويفتحها فتُحلُ مشاكلهنّ، او تُفتح عقدتهن ويتخلصن من العنوسة. نزلت الدرج الذي على يمين الجامع حيثُ الساحة المخصصة للسيارات والتي وقفت فيها حوافل السيّاح والحجاج من انحاء العراق. حتى اذا خيّم الليل وأشعِلت أضواء الجامع تجمّع الشباب في الساحة يلعبون كرة القدم. تأملتُ بيوت الطين المبنية على يمين الجامع تتظلل ببركته ثم أعدت نظري الى منظر النخلات واشرطة الأضواء الملّونة تتأرجح بينهن. ولكنّ الزائر اذا اراد معرفة المدينة فليس له الا جانب المدينة الأيمن، حيث المدينة القديمة، والقناطر، والأفرع الضيّقة او كمّا يسميها أهل المدينة «العوّجات». حيث رائحة التاريخ، وبرودة السواقي التي تجري في منتصف الشارع تأخذ برودتها

من ظل المنازل المبنيّة بالجص والحجر. زرتُ مرقد «الخِضر»، وجامع «يحيى أبي القاسم»، و«قلعة باشطابيا» الواقفة عند دجلة وكأنها تراقب جريانه وتسهر على انسيابه. زرتُ سوق «باب السراي» حيث محلّات العطارين تبعث رائحة تحميص القهوة وعطر الهيل فتُعانق روائح البهارات التي طُحنت تواً، ومحلات الصفّارين المهرة وهم ينقشون آيات القرآن بخفة ومتعة على الحواف الداخلية لأنية الألمونيوم والنحاس، وحيث محلات الفحامين ودكاكينهم المعتمة الجالس خبرائهم أمامها يطرقون قطعة حديد كانوا قد قلّبوها بين الجمر حتى لانت لهم وصارت تطيعهم فتتشكل كما يريدون لها. مررتُ ببائعي الأقمشة، والأحذية، والجلود. ومع أنّ الصيف كان مطلاً برأسه، إلا أنّ جسدي لم يستطع الا الارتعاش تحت ذلك الظل الداكن. سرتُ في «شارع النجفي» حيث المكتبات والكتب، ولم يكن الشارع الا شقيقا لـ «شارع المتنبي» في بغداد، شقيق يتحدث لهجة مغايرة. دخلت المكتبات وتصفحت الكتب، وأخذت مجموعة كتب علي الوردي بالإضافة الى كتبٍ اخرى. تجولتُ، وتجولتُ، وتجولت حتى أصبحت استطيع تخيّل المدينة وأنا أمام الحاسوب، وخصوصا جانبها الأيمن. إلا أنّي لم ازل طفلا من حيث معرفتي بالمدينة وأهلها وحالهم، ولهجتهم، وهمومهم. فالمدنُ العتيقة لا يمكن اختزالها بالقراءة والتجوال، وبالطبع لا يمكن اختزالها بجولات استكشافية تمتدّ لأسابيع او اشهر معدودة.

كانت المعلومات الخاصّة بعملي تحوي رؤوس نقاط ووصف عام لطبيعة العمل وطريقة تأديته. ولذلك فعندما جلست أمام الحاسوب وبدأتُ كتابة أولّ تقرير، حاولتُ ترتيبه قدر الإمكان ليبدو عملّ «صانع سياسة» محترف:

بسم الله الرحمن الرحيم

م/ تقرير عن الاوضاع في مدينة الموصل

ت: 2014\06\01

الناس داخل المدينة يعيشون في حالة من الخوف والإحساس بغياب الأمن المتواصل بسبب التفجيرات المتكررة والعمليات التي تقوم بها الجماعات المسلحة، وعلى وجه الخصوص تلك التي تطال رموز المدينة ومثقفيها المنخرطين في العملية السياسية. ويعتري أهل المدينة غضب عارم تجاه ممارسات القوات الأمنية التي ضيّقت عليهم أبواب رزقهم، وأهانت كبارهم، واعتقلت شبابهم الأبرياء وساومت على حريّتهم لتحصيل الأموال؛ القوات

الأمنيّة عاجزة عن توفير أبسط أشكال الأمان التي يتوقعها المواطن مقابل الأموال الطائلة التي يتم صرفها وتبذيرها. ولكل ما سبق، ولغيره، فإنّ الهوّة اتسعت بين المواطنين والدولة وما يمثلها مباشرة على ارض الواقع من قيادة عمليّات، ومؤسسات امنيّة. فيما يبدو أنّ المؤسسات المدنيّة الإدارية تقوم بعملها وإن بصورة غير فاعلة او كافية. وأصبح اهل المدينة مطلعون على حقيقة أنّ حكومتهم المحليّة مجردة من كل سلطة في اتخاذ القرارات التي تمس حياتهم اليومية.

التوصيّات:

1- العمل على استغلال العلاقة المتردية وحالة انعدام الثقة بين المواطنين والقوات الامنية من جهة، وبين الحكومة المركزية والحكومة المحلية من جهة اخرى سيكون أساسا تستطيع المجاميع المسلحة البناء عليه.
2- ايقاف العمليات الانتحارية والتفجيرات العشوائية التي قد تودي بحياة المدنيين، والتركيز على العمليات النوعيّة التي تستهدف قيادات الحكومة والقوات الأمنية.

3- نرى أنّ تضييع الموارد الثمينة على نقاط التفتيش المتناثرة أمر يجب إيقافه. فإيقاع الرعب في نفوس الجنود لم يعد له حاجة، فقدرة القوات الأمنية ضعيفة لا بسبب الرعب وإنّما بفعل الفساد المستشري بين آمريهم وضباطهم، بالإضافة الى اللامبالاة والإرهاق والإهمال الذي يشعر به الجندي او الشرطي. ولذلك فإنّ الاستراتيجية التي ينبغي اتباعها هي اشعار الجنود بالأمان وإعطاءهم حيّزاً من الثقة بالجماعات المسلحة ليكونوا على الحياد على أقل تقدير وبذلك تتوفر الموارد المادية والبشرية للعمليات الكبرى حيث المقرّات الحكومية الأكثر تحصينا والأعظم أهميّة.

4- بث الشائعات التي توسع الهوّة بين المواطن والحكومة أمر لا مناص منه. وربما التركيز على الأمور التي تهم المواطن أكثر من غيرها كالأمان، والرواتب (بالنسبة للموظفين) وباقي المهن (لمن لا يعمل للحكومة)، واضفاء الطابع الطائفي، والاجتماعي على دوافع القوات الأمنيّة في تعاملها المسيء مع أهل المدينة.

أرسلت التقرير من البريد الالكتروني الموجود مسبقا على الحاسوب الى بريد الكتروني المذكور في التعليمات، ثم بدأتُ تصفح صفحات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي أقرأ عن المدينة وأحوالها ومنشورات أهل المدينة، ومن يدّعون أنهم من أهل المدينة. لم يخالجني شعور صانع سياسة، مهما كان الشعور الذي يشعر به صنّاع السياسات؛ ولكن اعتراني شعور بالخجل والحقارة لكوني مخبر. شعور بالخيانة التي ارتكبها بحق المدينة التي بدأت أتعود عليها منزلاً ثانياً وملجأً لي. وربما كان في تقريري شيء من محاولة حفظ بعض الأرواح والباس تلك الفكرة ثوبا تبدو فيه فكرة مناسبة لجميع الأطراف، ولكنه بقي يشعرني بما يشعر به من يعمل مع العدو، حتى وإن لم يكن للأبرياء عدوا واحدا، فقد كان كل من يحمل السلاح في هذه البلاد عدوا لمن لا يحمل السلاح. لكنني حاولت اقناع ضميري، أو على الأقل كتم صوته، ببعض دروس العلوم السياسية التي حضرتها والتي طالما ركزت على ضرورة اتخاذ القرارات الصعبة، وحتمية وجود أضرار جانبية.

لم تكن ساعات قليلة قد مضت عندما جاءتني رسالة بريد الكتروني من نفس البريد الذي أرسلت اليه تقريري. كانت الرسالة مقتضبة وفي الموضوع مباشرة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

1- «مدينة الموصل» تصبح «ولاية الموصل»

2- التاريخ يُكتب بالتقويم الهجري.

3- «الجماعات المسلحة» تُصبح «المجاهدين»

4- «القوات الأمنية»، «القوات الأمنية المرتدة»

5- «الحكومة»، «الحكومة العميلة»

6- «العمليات الانتحارية»، «العمليات الاستشهادية»

7- يجب وضع التاريخ الهجري في نهاية التقرير أيضا.

8- وضع الاسم الحركي في نهاية التقرير.

في حال تساءلت عن الاسم الحركي فليس بذي أهميّة يمكنك استخدام لقبك المعتاد، "الأستاذ"

التقرير جيّد جداً واصل العمل المتميّز.

السلام،

أبو سعد

رسخت رسالة أبي سعد شعور الاشمئزاز الذي ملأني، وأضافت اليه احساساً بسواد وظلامية ما هو مقبل. فلم تكن العبارات التي كان عليّ استخدامها تعبر عن أيّة علمانية أو مدنية، وذكرتني بحال سوريا وما تناقله أهل القرية التي مكثت فيها عمّا حلّ بالمدن السورية ومدنيتها بعد استيلاء الجماعات المسلحة عليها. ولكني واصلت ما كنت أقوم به لسبب لم أعرفه حينها؛ لسبب ما زلت لم أتوثقه. ساءت الأحوال في المدينة كثيراً، وازدادت كمية الدخان الذي استنشقته مع كل تقرير كنت ارسله، ومع كل مديح وثناء تلقيّته من أبي سعد. لم تعد الكلمات تسعفني كما كانت، وكأنني كنتُ ارسل جزءا من انسانيتي مع كل تقرير ارفعه، مع كل نصيحة اسديها للعدو. لم اعد اعرّف العدو كما كنتُ سابقاً، فقد أصبح العالم في رأسي منقسم الى جبهتين: الإنسان، وما دون الانسان. فهل شعوري بالاشمئزاز من العمل مع ما دون الانسان يجعلني انسانا؟ ربما، ولكني لم أزل أعمل مع ما دون الانسان ضد الانسان، ضد حضارة الانسان، ضد طريقة عيش الانسان. ربما لا يستطيع من لم يعش حال المدينة، وغيرها من المدن، أن يدرك مقصدي، ولهذا اضع بين ايديكم مقتطفات من التقارير التي ارسلتها خلال الأشهر التالية لأول تقرير:

«.. والناس خائفون من الوضع الأمني الهش. غاضبون على الجميع من تزايد الاغتيالات، والعمليات ضد «القوات الأمنية المرتدة» والتي غالبا ما يكون ضعف ضحاياها من المدنيين. وقد وصلت الأزمة بين «الحكومة المحلية العميلة» و«الحكومة المركزية العميلة» غايتها. فإن كان هنالك، بالفعل، نية بالتحرك، فالآن هو الأوان.»

«أهل المدينة مرعوبون من تحّول جزء من جانب المدينة الأيمن الى ساحة قتال. فبين استخدام «المجاهدين» لمنازل الناس دروعاً، وبين قصف «القوات الأمنية المرتدة» العشوائي، بدأ أهل تلك المناطق النزوح الى الجانب الايسر من المدينة، والقرى، والأقضية القريبة لمدينة الموصل..»

«موجة نزوح جماعية كبرى لأهل المدينة. الناس مرغمة على ترك منازلها وأملاكها للمجهول. فهم لا يعرفون عن الجهة الداخلة الى مدينتهم شيئا. يرافق خوف الناس حنقهم على «القوات الأمنية المرتدة» التي راقبوها تهرب قبلهم دون دفاع يذكر عن المدينة. القوات الأمنية نفسها التي كانت تذيقهم ألوان العذاب، هربت بما يظنه الناس مؤامرة. وبذلك يعتقد أهل

المدينة أنّ اتفاقاً قد حصل بين «الحكومة المركزية العميلة» وبين الجهة التي دخلت مدينتهم، وخصوصاً أنّهم يرون الكثير من «المجاهدين» ليسوا عراقيين، أو حتى عرباً..»

«بعض الهدوء الحذر يشوب أجواء المدينة، وبدأ بعض النازحين العودة الى منازلهم، ذلك بعد تطمينات من بعض «المجاهدين» العراقيين المنتشرين في شوارع المدينة أنّهم لا ينتمون الى أيّة جهة أصولية متطرفة، وأنّهم ليسوا الا من ابناء البلد الغيورين على بلدهم، وأنّهم لا يريدون السلطة لأنفسهم، وأنّ المدينة سيحكمها من يختاره أهلها، وأنّ لأهل المدينة الخيار في حكم أنفسهم، وأنّ كل ما اذيع عن عقوبات التدخين وشرب الخمر لا يعدو عن كونه اشاعة. حتى أنّ كثير من اولئك «المجاهدين» نهروا الناس عن ربطهم بتنظيم معيّن..»

كان هذا التقرير من التقارير القليلة التي كنتُ أكتبها والأمل يغمرني بتحقيق ما ادّعاه اولئك المسلحون. حتى أنني تذكرت وقتها كم اشتقت الى قصص الثورات الوطنية القليلة التي توكل الى الشعب حكم نفسه بنفسه.

«عادت أعداد اكبر من اهل المدينة النازحين الى منازلهم. وقد أطربت الناسَ شائعاتٌ يتناقلها البعض عن اجتماعات في بناية مجلس المحافظة لإختيار محافظ من أهل المدينة، وخصوصا ما يشاع عن أنّ الغلبة ستكون للعسكريين المهنيين القدماء. ولكن، هنالك بعض الأخبار والأحاديث عن انقلاب تقوم به بعض الفصائل المتطرفة للإستيلاء على السلطة في المدينة، واختطاف الغاية الوطنية لتحقيق أهداف عرقية، او دينية، او مذهبية..»

«..انتشرت شائعات، قد يكون فيها بعض الحقيقة، بين اهل المدينة عن عمليات اعتقالات وتصفية تقوم بها بعض الفصائل ضد القيادات العسكرية العلمانية التي تحظى بتأييد الناس. يدعم ذلك تصرفات فردية يقوم بها بعض «المجاهدين» كمنع التدخين، والكحول، والتدخل في خصوصيات المواطنين كالملبس؛ وذلك يتركز، بحسب ما يصل الي، في المناطق المحيطة بالمدينة.»

«بدأت ملامح افغانستان إبان حكم طالبان تظهر على المدينة، وهو ما يرعب غالبية اهل المدينة، والأقليات الدينية على وجه الخصوص. وما كان شائعات في الأمس، أضحى اليوم احاديث ترقى الى ان تكون اكيدة عن

اعتقالات عناصر التنظيم لكل من خالفهم او وجدوا فيه توجه مدني علماني. انّ استمرار مثل هذه الأعمال يعني تأليب الرأي العام ضدهم، وربما تتحول الأحاديث في الخفاء الى أعمال مسلحة في العلن. فقد أعطى أهل المدينة الكثير من الخسائر من مثقفيهم، وضباطهم، وشبابهم منذ الغزو الأميركي للعراق، وربما لم يعد من مجال لإعطاء جهة اخرى مزيدا من الخسائر. وليست ندرة السلاح في المدينة بحرا عميقا لا يمكن اجتيازه، فبعض الملتحقين بالتنظيم يعطي أكثر من سلاحه لقاء الكمية المناسبة من المال. ..»

«.. وإنّ منع الاتجار بالدخان أمرٌ زعزع ثقة الناس بـ «المجاهدين». ليس ذلك لأنّ اهل المدينة كلهم يدخنون السجائر، ولكن لأنه ينذر بحكم متطرف من أقصى اليمين، وهو ما قد يناسب قرية، او منطقة نائية متأخرة، لكنّه لن يسير على اهل المدينة الا إكراها، وذلك ما قد يفتح على «المجاهدين» جبهة اخرى.»

«تراود الناس تساؤلات عن الجهة المستفيدة من اموال البضائع التي تُصدّر من المدينة الى اقليم كردستان، او التي تخرج الى سوريا، او تركيا. فلم تعط «الحكومة المركزية العميلة» رواتب الموظفين، ولا التنظيم الذي يأخذ اموال التصدير سدّ حاجة اهل المدينة الذين بدأ العوّز يظهر في احاديثهم.»

«أسئلة كثيرة تراود اهل المدينة: من يسيطر على المدينة؟ هل هم عراقيون؟ هل هم عرب؟ أم هم اجانب؟ هل لديهم مشروع لتخليص البلد؟ أمّ أنّ مشروعهم السيطرة على البلد، وإن كان ذلك يعني خرابه، فحسب؟..»

«لا تطمّن ثياب «المجاهدين» اهل المدينة. فهم يرون فيها مشاهد قطع الرؤوس في الساحات العامة، والرجم العلني، والجلد. يرون في تلك الثياب علامات قيام دولة من الدول التي تدّعي تطبيق الشريعة.. وليست المدينة مستعدة لقبول مثل هذه الرؤى.»

«هنالك احاديث عن مضايقات يتعرض لها ابناء الأقليات الدينية، المسيحيون على وجه التحديد. يخاف من بقي منهم، وهم ليسوا قليلا، أن يتفاقم الوضع الى أكثر من مجرد مضايقات..»

«طغت هذه الفترة شائعات عن فرض الجزية على «النصارى»[*] وذلك يقلقهم، ويقلق اهل المدينة المسلمين على حد سواء. ففي حين يرى «المجاهدون» انّ «النصارى» اعداء لهم لا يجب موالاتهم، يراهم أهل المدينة المسلمون اخوةً واصدقاءً وجيراناً قضوا معهم افراحهم واتراحهم. ولا أظنّ ايذاءهم سيمرّ على اهل المدينة مرور الكرام.»

«المدينة مصدومة بما حدث «للنصارى». اخبار تهجيرهم واخذ املاكهم لم تعد سراً. والاستيلاء على متعلقاتهم الشخصية وحليّ النساء وسياراتهم أصبح معلوما لدى اهل المدينة، والعالم.»

[*] علّق أبو سعد على اول مرة ذكرت فيها المسيحيين: "المسيحيون" تصبح "النصارى". ومع أنني استشعرت غير الخير في هذا الاسلوب، الا انني امتثلت لتعليمات ابي سعد.

«لم يعد فتح الطرق والأمان الحذر يغطي على تدخلات «المجاهدين» في خصوصيات الناس، والتي يعتبرها اهل المدينة سافرة وغير مبرَرة. ونقاط التفتيش التي يقف في اغلبها شباب من غير اهل المدينة يفرضون سلطتهم على اهل المدينة مشكلة اخرى يجب حلّها، وبسرعة.»

«بدأت نظرات الناس الى «المجاهدين» تغدو شبيهة بنظراتهم الى «القوات الامنية المرتدة» من قبل. فهم، في نظر أغلب الناس، ليسوا الا قوة فرضت نفسها بسلاحها، وليست سلطتها الا سلطة أمر واقع عليهم التعامل معها لحفظ نفوسهم وأهليهم.»

«إنّ تفجير الجوامع ومراقد الأنبياء والأولياء قضت على بقية الأمل التي حملها أهل المدينة في صلاح وضعهم تحت سلطة «دولة الخلافة». وفي حين أنّ عقيدة اكثر «المجاهدين» عقيدة اصولية سلفية متشددة، فإنّ تدين اهل مدينة الموصل يغلب عليه الطابع الصوفي الروحاني. وتدمير أضرحة الأنبياء والأولياء ليس كما يظنّه «المجاهدون» تدميراً لحجارة تُعبد من دون الله، ولكنّه تدمير لجزء كبير من ذكريات المدينة، وتاريخها، ومشاعر التدين في

نفوس أهلها. وما كان مدفونا من مشاعر الغضب والسخط، أصبح الآن بادياً في احاديث اهل المدينة، الذين لا يستبعدون خيار مقاومة «المجاهدين» كأي سلطة غاشمة اخرى؛ وكثير منهم يرى «دولة الخلافة» بنفس العين التي رأى فيها الحكومة الظالمة.»

«لم تعد ابتسامات «المجاهدين» في نقاط التفتيش تطيب خواطر الناس أمام التدخلات في حياتهم الاجتماعية، والاقتصادية. وليس اكراه الناس على ارتداء زي معيّن– الخمار– او، فيما يخص الذكور، اطلاق اللحى الا سبب آخر لتوسيع الفجوة بين اهل المدينة و«المجاهدين». واستحداث ديوان «الحسبة» الذي يراه اهل المدينة استهزاءً بحسهم الأخلاقي، وشعورهم الديني الا مما يزيد مشاعر السخط..»

«لم تعد الأحاديث الفردية عن تشكيل كتائب لمقاومة «دولة الخلافة»، التي يراها اهل المدينة قوة محتلة، مجرد أحاديث. وأمام مئات الآلاف التي تساند «دولة الخلافة» حول العالم، والتي تضم في غالبها ناس من غير اهل المدينة، او العراق ممن لا يدركون عن الواقع شيئا الا ما يصدقونه مما يطيب لهم

تصديقه، فإنّ مئات الآلاف من أهل المدينة تساند تشكيل وتنظيم مقاومة للتخلص من سلطة تلك الدولة.»

«لا يصدّق اهل المدينة، ممن بقي فيها او اقاربهم ومعارفهم من النازحين، ما يروجه اعلام التنظيم. ففي الوقت الذي قد يغري اعلام «دولة الخلافة» الناس من خارج مناطق سيطرتها، يدرك أهل المدينة جيّدا الواقع الذي يعيشونه. وكما أكدنا في تقارير سابقة، فإنّ الحالة الاقتصادية، وتدخلات نقاط التفتيش، والحسبة، وديوان الزكاة، وغيرها التي أثقلت كاهل اهل المدينة مما يساهم في يأس اهل المدينة من صلاح حالهم الا بالتخلص من «دولة الخلافة»، خلاصاً نهائيا.»

«رسّخت الاعتقالات التي يقوم بها «المجاهدون»، وعمليات الجلد، والرجم، والتعزير، من قناعة اهل المدينة بلا جدوى السكوت. ففي الأيام القليلة الماضية علت أصوات كثيرة تتحدى سلطة الحُسبة. وما يزيد الطين بلّة الاعدامات التي طالت وجهاء المدينة ومثقفيها وشبابها من الذين يحملون رأياً معارضا «لدولة الخلافة». وبحسب ما يتناقله الشارع الموصلي، سواء في

داخل المدينة او النازحين، فإنّ خيار المقاومة المسلحة أصبح واقعاً ينتظر اكتمال تنظيمه والبدء به.»

«إنّ العلامات التي يضعها «المجاهدون» على منازل واملاك الأقليات الدينية، وخصوصا «النصارى»، كحرف «ن»، تعمل بعكس ما ارادت له الدولة الاسلامية في ترسيخ سلطتها؛ فتلك العلامات أصبحت شواهداً ونُصباً تذكّر أهل المدينة بالظلم الذي حاق بأصدقائهم، وجيرانهم، والذي لابدّ يطالهم، وكل من خالف التنظيم، في حال سكوتهم ورضاهم على ممارسات دواوين «دولة الخلافة» المختلفة.»

«غضب عارم يعتري أهل المدينة تجاه الامتيازات التي تُمنح «للمجاهدين» من خارج المدينة، أو خارج العراق حتى، على حساب أهل المدينة الفقراء الذين تسبب التنظيم بقطع ارزاقهم حين دخوله المدينة واستيلاءه عليها.»

«فرحة خائفة تملأ وجوه واحاديث العديد من اهل المدينة بأخبار العمليات المتفرقة البسيطة التي تقوم بها كتائب المقاومة المسلحة ضد «المجاهدين»؛

وخصوصاً تلك الكتائب التي تحمل أسماء الذكريات العزيزة على اهل المدينة، مثل «كتائب النبي يونس»، و«كتائب الحدباء»، وغيرها..»

«ملأ الشارع الموصلي حديث غزو «المجاهدين» للأقضية والقرى التابعة لمحافظة نينوى والتي كانت تحت سيطرة قوات اقليم كردستان، والهجرة الجماعية لسكان تلك المناطق من الأقليات الدينية والمذهبية في المحافظة؛ وما قد تعنيه تلك الغزوات بالنسبة للعلاقة بين التنظيم واقليم كردستان من جهة، وبين التنظيم والرأي العالمي من جهة اخرى، وبين المسلمين العرب والأقليات الدينية، والمذهبية والقومية، من جهة ثالثة. ويشغل بال أهل المدينة تأثير تلك الغزوات على حال النازحين من المدينة الى اقليم كردستان..»

«ذهول يسيطر على أهل المدينة من حقيقة ما تناقلته وسائل الإعلام بخصوص سبي نساء الإيزيديين بعد دخول «المجاهدين» الى قضاء سنجار والقرى التابعة له. يخاف الكثير من اهل المدينة أنّ عمليات السبي تلك، ما

هي إلا جزء من الغاية الحقيقية التي دفعت «المجاهدين» لدخول المدن والسيطرة عليها، وليس الغاية الدينية، او غاية رفع الظلم المعلنتين.»

«بعد أن توضح بما لا يقبل الشك انّ عمليات سبي النساء الإيزيديات حقيقة، كما أعلنت مجلة «دولة الخلافة»، «دابق»، فإنّ صوت اهل المدينة بدأ بالارتفاع، وبدأ مثقفوها ووجهاءها وعلماء دينها بالتحشيد والتثقيف ضد مثل تلك التصرفات التي تعبّر، بحسب وصفهم، عن مدى دناءة ونذالة من قام بها، ومن رخّص لها، ومن برّرها.»[*]

«على الرغم من تدهور الوضع الأمني، وزيادة الاعتقالات والاعدامات بحق اهل المدينة، الا انّ فرحة تغمرهم بأخبار عن تشكيل حلف دولي للتخلص

[*]كتبت بعد هذا التقرير بأسابيع قليلة تقريراً آخر عن أمثلة رفض اهل المدينة لمثل تلك التصرفات؛ ومن ضمن الأمثلة، شراء من تيسر حاله واعانته اتصالاته للمختطفات واعادتهنّ عن طريق المعارف والأصدقاء الى أهلهن، او اخراجهن من مناطق سيطرة التنظيم بعد دفع الرشاوى لعناصرها. لكنني، ورغم معرفتي بأني لست الوحيد الذي يكتب التقارير ويرفعها الى ابي سعد، او الى غيره، آثرت عدم ارساله علّي بذلك اساعد من يساعد النساء في الهروب من قبضة عناصر التنظيم.

من «دولة الخلافة». فحتى اولئك الذين كانوا يساندون التنظيم بدوافع البحث عن السلطة والنفوذ، بدأوا اليوم بالتراجع عن مواقفهم واعادة النظر فيها. ومعّ كل الاعلام الذي يروج لبقاء «دولة الخلافة» وتمددها، الا أنّ الكثير من الناس، ومن «المجاهدين» ايضا، باتوا شبه موقنين بأنّ زوال الدولة أصبح مسألة وقت لا أكثر.»

«مع بدء الحلف الدولي عمليات القصف الدقيقة، في الغالب، على مقرات «دولة الخلافة»، وطرق الإمداد، وانحسار مناطق سيطرة التنظيم، وتوقف تمدده، بدأت عمليات الكتائب المسلحة داخل المدينة وفي اطرافها تتكثف، وتبدي تنظيماً عاليا يدل على معلومات استخبارية عالية الدقة، واختراقاً عميقا في صفوف «المجاهدين» ودواوين «دولة الخلافة».»

«الاعدامات والاعتقالات بحق ائمة الجوامع ورجال الدين ممن رفض ما يمليه عليه عناصر الحُسبة، ومن الذين لم يمجدوا «دولة الخلافة»، او يلعنوا من عادى «المجاهدين»، اصبحت مما يجب على قيادات «دولة الخلافة» التدخل لوقفه، واطلاق سراح المعتقلين من رجال الدين. ودون ذلك،

أصبحت ثورة شعبية، وإن من غير سلاح، على سلطة «دولة الخلافة» وشيكة.»

كتبتُ غير هذه التقارير الكثير، فقد كان أبو سعد يطلب الدقة والتفصيل. كتبتُ عن الأطفال الجياع، وعن الشيوخ الذين دقّ البرد عظامهم ولم يستطيعوا توفير بعض النقود لشراء الوقود. كتبتُ عن الطلبة الذين لم يعودوا يروا للحياة بقية، وعن المرضى الراقدين في مستشفيات المدينة ينتظرون علاجات لن تأتي. كتبتُ عن عمليات المقاومة ضد المسلحين ونقاط تفتيشهم، وعن قطرات الأمل التي دفعتها في صدور أهل المدينة. كتبتُ عن امرأة أهانت أحد المسلحين لأنه، كما قالت، مجهول أصلٍ جاء يريد أنّ يعلم نساء المدينة كيف يكون اللباس المحتشم؛ وعن رجلٍ هدد مسلحاً آخر لأنه، كما قال، لم يحارب ويقضي في الأسر عقدا من عمره ليعود الى بلده فيأمره صبيٌ يحمل سلاحا أن يُطفئ سيجارته. كتبتُ عن الأعلام العراقية التي رُفعت فوق أنقاض جامع النبي يونس، وعلى أعمدة

الكهرباء؛ وكتبتُ عن الشموع التي أُشعلت في احضان ما تبقى من جدران كنائس المدينة. كتبتُ عن حال الناس، علّ من يقرأ يهتم لحالهم.

ولكنّ هذه الحكومة لم تختلف عن غيرها، حكومة عميلة لنفسها، تحمي نفسها، وتدافع عن مصالحها، وعندما يبلغ الجوع في الناس مبلغه، تأتي لتوزع بضع لقيمات على عدة عائلات وتوثق جودها وكرمها. ليس مهما الشعار الذي ترفعه، خلافة، جمهورية، ملكية، سلطنة، او امارة؛ و ليس مهما الاله الذي تعبده، الله، يهوه، كريشنا، أو الطبيعة؛ كلها شعارات خالية لم أر منها شيئا. فلا دولةً رأيتُ ههنا، ولم أر إلهاً. الإله الوحيد الذي رأيته كان في عيون من جُلدوا لأنهم «فَسَقة»، وفي عيون من قطعت رؤوسهم لأنهم «مرتدون»، وفي صرخات من أُحرقوا، ومن قُتلوا. أمّا اولئك المخبولون، فلا اله لهم، فحتى الآلهة اصطفت تتبرأ من أفعالهم. مختلة عقولهم يرون في قتل كل من خالفهم جهاداً يمسح سواد قلوبهم وأمراض صدورهم، ويدخلهم الجنة؛ حتى أنّ بعضهم يرى جهاداً في عقاب من قلّ عنه تشددا وقسوة وعنفاً من جماعته. ويكأنّ المنازل عند إلهِهم تُعطى لِمن إمتهن الابتعاد عن الإنسانية: أمعن في ترك كونك انسانا، ولك الثواب والجِنان.

لم يكن للمدينة صوت في بداية سيطرة التنظيم عليها، أو هكذا حسبت. فبعد «سقوط الموصل» بيد التنظيم كما يسمّيه أهل المدينة، أو «يوم

الفتح» كما يطيب للتنظيم تسميته، كان الناس مذهولين، ليس لأنّ تخلي القوات الأمنية عنهم كان أمراً يستحيل التفكير به، ولكن لأنّ حنيناً الى مفهوم الدولة العراقية كان لا يزال يخالج مشاعرهم، حتى وإن كانت دولة بحكومة فاسدة. تجوّلت في شوارع المدينة فلم أسمع إلّا أحاديث عامّة خائفة. أخبرتُ أبا سعد بأني عييتُ ولم أستطع جمع ما يستحق تقديمه في تقرير. زارني أبو سعد حينها وتناولنا طعام الغداء سوية دون أن يتطرق الى الوضع القائم في المدينة، وكأنما لم تنهَر دولة وتقُم أخرى تحكم المدينة. شربنا الشاي، وأشعلنا سجائر من تلك التي كان ابو سعد قد ارسلها لي مع سائقه. حدثّني عن الأكلات التي اشتُهرت بها المدينة، وعن أعلام المدينة، وعن بعض عادات اهل المدينة. كما وحدثنّي عن الإحتلالات التي تحملها أهل المدينة، والحروب التي خاضوها، والمجاعات التي تجاوزوها. حدثّني عن بعض مفردات لهجة المدينة وأصولها في اللغات العربية الفصحى، والعثمانية، والفارسية. حدّثني عن مذاهب المدينة، وأديانها، وقومياتها؛ عن تاريخ أبنيتها القديمة ونوادر أمثالها وحكاياها التراثية. أنهى حديثه وقام يريد المغادرة، فأوصلته الى الباب الخارجي. فتح الباب على قدر ما يكفيه لتمرير جسده، ثم التفت وقال لي:

- إن لم تكن تسمع، فلأنّك لا تُنصت جيدا. أنصت جيداً، فهذه المدينة لم تسكت يوماً، لمَ ستبدأ الآن! أنصت جيداً، فكل شيء حولك يبوح بشيء.

ثم أغلق الباب ورحل.

لم أفهم وقتئذ ما قصده أبو سعد بقوله ذلك. وقد عانيت كثيراً حتى تعلمت الإنصات. لم أسمع شيئا حتى أصبحت أنتمي الى المدينة، وأصبحت هي جزءاً مني، وليست مجرد محل إقامة وعمل. بدأت أسمع عندما بدأت تنشأ علاقة بيني وبين مآذنها وكنائسها المهدّمة، ودورها القديمة، وقناطرها الممسكة بأزّمة تلك الدور. بدأت أسمع عندما تطورت العلاقة بين أُذنيّ ولهجة أهل المدينة، عندما أصبحت أُذناي تطربان لسماع صوت «الغين» من السنتهم؛ عندما أصبحت المدينة القديمة تذكرني ببغداد وذكرياتي هناك، تُكثّفها جميعها في حيز صغير من ذاكرتي، ثم تسلوني عن ذكريات بغداد وتُنسنيها.

سؤال كان يراودني منذ بدء تدمير أضرحة الأنبياء ومقامات الأولياء في المدينة: هل تبكي الحجارة؟

لم ألبث أنساه حتى يعاودني من جديد. ومن شدة هوّسي بإجابة ذلك السؤال كتبته في محرك البحث على الإنترنت، وبالطبع، لم أوّفق؛ فقد جاءت نتائج بحثي هكذا:

أُغنية تُبكي الحجر.

قِصة تُبكي الحجر.

فتاة تَبكي حجر.

تراوح هذا السؤال في ذهني بعد عودتي من جولة في المدينة القديمة حيث كان أبو سعد قد اخذني لتناول الطعام أول قدومنا الى المدينة. كنتُ في بداية الأمر لا أجرؤ على الدخول الى اعماق تلك الأزقّة الضيقة، او العَوجات، ولكن مع تطوّر علاقتي بالمدينة بدأ شيءٌ ما يدعوني للذهاب أبعد فأبعد. وفي احدى الجولات في أعماق أزقّة «باب اجديد»، خُيّل إليّ أنيّ سمعت صوت بكاء، لم يكن نحيباً، ولم يكن عويلاً، بل كان خنيناً خافتاً.

توقفت عن الحركة، إلتفتُّ أبحث خلفي، ثمّ عدتُ أدقّق أمامي، لكني لم أرَ أحداً. تسمّعتُ ثانية فاستمعت الصوت دونما ريب. هل بانت على عقلي آثار الوحدة؟ أم هو حديث أبي سعد عن الإنصات والاستماع؟ ربما، لكنّه لم يكن صوتَ بشر ولا صوت حيوان، وبالاعتماد على ما كانت تقصّه عليّ جدتي، فإنّه لم يكن صوت جان أيضاً. لم يكن الصوت مرعباً، ولم يكن مؤنساً؛ فلا هو صوت من أراد تخويفاً، ولا هو لمن أراد إضحاكاً وإمتاعاً. كانت الوحشة تملأ الصوت، وكذلك ملأته الوحدة، كان كصوت من يريد التظلّم والشكوى. هنالك خطرت لي فكرة أنّ الصوت صوت الحجارة، ومن هناك انبثق السؤال ونما في رأسي كبراعم شجيرة الغارديني في حديقة منزلنا في بغداد. ولكن علامَ تبكي؟ أكانت تبكي على أخواتها التي أقامت يوما مراقد الأولياء وجوامع الأنبياء وأصبحت أنقاضاً للماضي وأطلالا تشهد على ظلم الحاضر وظلامه، أم أنّها بكت الناس الذين سكنوها يوماً، والأطفال الذين اتكأوا عليها فانحنت تضمّهم؟ بكت أحاديث النسوة في أنحاءها وتراكضهن لإدراك قدر الطعام الذي انساهنّ اياه طيب الحديث، أم بكت ضحكات رجل يشمت بجاره بعد أن هزمه في لعبة أو اخرى. فربما كانت الحجارة تبكي الناس والحجارة؛ ولمَ لا؟ ها أنا ذا حديث العهد بها أسمع جزءاً مما تريد قوله، فكيف بمن حمتهم وحموها، واحتضنتهم وعانقوها،

وكلَمَتهم فغضبوا منها، فكلّمتهم فصالحوها. عدت ذلك اليوم من جولتي والسؤال قد ملأ رأسي وتشابك مع جميع افكاري: هل تبكي الحجارة؟

لم أنم تلك الليلة إلا ساعات الفجر. ومع بدء حركة الشارع الخجولة عدت أتجوّل في نفس الأزقة آملاً في سماع صوت الحنين فأرتاح لسلامة عقلي، وراجياً ألا أسمعه لئلا أشكّ في سلامته. عاودت الذهاب الى هناك مرة، وثانية، وثالثة؛ وفي كل مرة كنت أسمع الصوت نفسه لا تغيّر فيه ولا تحوّل، إلا زيادة في الوحشة وبيان أفصح للوحدة. بقي الحال هكذا لإسبوع أو ثمانية أيام قبل أن يختفي الصوت، زرت المكان مراتٍ ثلاثة، ولكنه كان قد ذهب من غير عودة. ربما راح يبحثُ عمّن يجيبه اذا اشتكى، عمّن يحادثه بلغته. غادر صوت البكاء المكان، أو قُل غادر رأسي، ولكنّ السؤال لم يزل يجوب أصقاع ذهني.

تطوّرت لديّ بعد فراق صوت البكاء عادة المرور بما تبقى من جامع النبي يونس والوقوف عنده والتأمل في حاله. رأيته أول مرة نبياً شامخاً فوق تلته، وها هو الآن ليس إلا طلل يخبر عن بعض ما يفعل الناس بالأنبياء. أمست البيوت التي استظلّت يوماً ببركة الجامع مكشوفة دونما بركة. وأضحت القبور التي نهلت سكينتها من شفاعة النبي دونما سكينة، فلا سَكَنة البيوت مباركون، ولا سَكَنة القبور مشفوع لهم. ثم تفكّرت فيّ وفي عملي وباب

رزقي، ألستُ شريكاً في قتل ما تبقى من النبي؟ ألستُ احدى ادوات من دمّروا بيوت الأنبياء؟ ولكنّها جوامع، وكنائس، إنها ليست للأنبياء، إنّها بيوت الله. لماذا لم يدافع الله عن بيوته فيدفع عنها؟! لماذا لم أزل آكل من أموال أحصلّها من معاونتي مَن هدّم بيوته؟ قد أتفهّم ألا يدافع الله عن الناس، ولكن ألّا يدافع عن بيوته حيث يفترض بالناس ادراك أمنهم! ربما لا يأبه بنا البتة، ومن ثمّ لا يأبه بما نظنه به، أو ربّما كان ما يحدث من بعض ارادته.

تملكتني في احدى المرات وأنا اتأمل بقايا النبي يونس رغبة ملّحة في أن ارتقي أنقاضه وأطالع حاله من مكان قريب. وكانت الغاية حينها أني قد أسمع بكاء حجارة الجامع عند اقترابي منها. حاولت صرف تلك الرغبة فلم تنصرف، ولأنّ الرغبات لا تصرفها إلا رغبات مثلها أو أشد منها، فقد فكرّت بالتدخين، ولكنني لم أكن قد جلبت علبة السجائر معي تجنباً لأي مُشكل قد يعترضني مع شرطة التنظيم بسبب هذه «الكبيرة». فعدتُ الى الرغبة الاولى وبدأتُ أقترب من سفح التلة لأصعدها فاقترب نحوي أحد عناصر ما يطلقون عليها «الحِسبة» لم ألمح سيارته التي كانت متوقفة في زاوية ماكرة؛ بدأني السلام:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

- وعليكم السلام ورحمة الله!
- ماذا تفعل في هذا المكان يا أخي؟
- لا شيء تحديداً، أحببت أن اصعد فوق التلة وأتأمل.
- تتأمل؟! ولماذا هنا من دون الأماكن الأخرى؟
- ليس لسبب معيّن. ربما لأنه مرقد نبيّ ومكان مبارك.
- هذا ليس مكاناً مباركا. إنّه مكان للشرك، اعتاد الناس الجهلةُ – غفر الله لهم– أن يتوكلوا ويستعينوا بمن دون الله في هذا المكان.
- وهل شققت على قلوبهم لتعلم ما كانوا يفعلون عندما يزورون المكان؟! ولو كانت نواياكم خالصة كما تدّعي، فلماذا إذن بحثتم عن القطع الأثرية تحت أنقاض الجامع؟ هل كان الناس يشركونها هي الأخرى أيضا؟
- يبدو أنّك زنديق –والعياذ بالله– ولماذا ليست لحيتك طويلة؟ ألم تعلم أنّ حلق اللحية حرام؟ هيّا، ستأتي معنا وينظر القاضي الشرعي في أمرك، فإمّا ان تتوب عن ذنبك توبة نصوحا، أو يأمر القاضي في أمرك ما يراه مناسباً.

فتّش «الأخ» جيوبي وأخذني الى السيارة واجلسني في المقعد الخلفي وعاد الى رفيقه يحدثه ثم ركب الاثنان السيارة وانطلقا بي الى محكمتهم الشرعية. وأنا اسير وسطهما بعد وصولنا الى المحكمة، لمحت مشهداً لولا معرفتي

بصحوي لحلفت أنه لم يكن إلا حلماً؛ ولكنه لم يعد يدهشني بعد مرور لحظات رتّب فيها فكري بُنيّاته. رأيتُ ابا الرضوان يقف فوق منضدة صغيرة في باحة المحكمة يصيح في مجموعة شباب وقفوا تحته فاغرين افواههم وجامعين ملامحهم في منتصف وجوههم تجنّباً لأشعة الشمس. كان ينصحهم موجهاً ومخبراً عمّا يجب أن يكون عليه شرطي الحِسبة من المكر والدهاء والقسوة. وكانت بعض العبارات مثل «لا تأخذكم في الله لومة لائم» وكذلك «وليجدوا فيكم غِلظة» وأيضاً «أشداء على الكفار رحماء بينهم»، تزخرف حديث أبي الرضوان. فهل كان أبو الرضوان يقصد بـ «الكفّار» أهل المدينة؟ إنّ ذلك لممّا يصدر عن أبي الرضوان.

أدخلوني الى القاضي الشرعي، الذي لابدّ أنّ عظَمَة لحيته كانت تفوق رجاحة عقله بأضعاف كثيرة، فأخبرني أن اتصل بكفيلي ليحضر قبل أن يُصدر فيّ حكمه. اتصلت بأبي سعد من حاسوب في الغرفة التي أجلسوني فيها كان مخصصا لهذا الغرض، وأخبرته على عجالة ببعض ما جرى، ولم ألبث نصف ساعة حتى رأيتُ أبا سعد يفتح باب الغرفة وخلفه القاضي يتملّقه ويعتذر لي عن أيّ ازعاج قد يكون «الشباب» سببوه لي، فلم أجبه. خرجنا الى باب المحكمة، أخرج أبو سعد سيجارة وأشعلها ثمّ ركب السيارة وركبت بعده.

«هل أخبرت أحداً عن طبيعة عملنا أو..» بادر أبو سعد يسأل فقاطعته، «لا، لا أحد»

أوصلني أبو سعد الى المنزل وأخبرني أن آخذ بقية اليوم راحة لي. أخبرته عن أبي الرضوان، وكيف أني رأيته ولم يرني هو.

- هذا هو مكانه. فهو بأحسن أحواله جنديٌ مطيع

قال أبو سعد ذلك وهو ينتظر مني افلات باب السيارة لينطلق.

- وما يجعلنا ذلك؟ جنرالات؟ رؤساء؟

سألتُ هازئاً

- لا هذا ولا ذاك. مجرّد واضعي خطط وصانعي سياسات.

أجاب أبو سعد وهو يسحب باب السيارة من قبضتي.

مرّت الأيام، والأسابيع، والشهور وأنا أكتب وارسل التقارير واحداً تلو الآخر. كتبتُ عن مصيبة بعد مصيبة كانت تقع بأهل المدينة بفضل المحتلين الجدد، ومخبريهم، وجنودهم، وشرطتهم (الرجالية والنسائية) وحِسبتهم. لم أكن أكتب تقارير صانع سياسة، بل كنت أكتب تقارير متحدث باسم من لا صوت لهم، كنت أكتب وكأني كنت آخذ مرتّبي من أهل المدينة فيكون

لهم عليّ حق. ولكن، هكذا فكرّت حينها، لمَ لا أكتب؟ كيف يختلف هؤلاء عن الميليشيات التي طردتني؟! قررّت أن اواصل كتابة ما أظنه الحق، فلم يكن لديّ ما أخسره. ولو أنّهم قرروا القبض عليّ لحاولت الهرب، ولرحلت عن الموصل كما فعلت عن بغداد؛ فإن فشلت، لعذبوني فترة ثم لألقوني من فوق بناية عالية كعقوبة على «شذوذي» أو أية تهمة جاهزة أخرى. أو لكنتُ تعذبت مقدار ما تستغرقه السكّين لتقطع شريان رقبتي عن بعضه، او مقدار ما تستغرقه الرصاصة لتدخل دماغي وتخرج منه، أو ما تستغرقه النار ودخانها لينهبا أنفاسي، أو ما سأستغرقه سابحاً نحو الأسفل من فوق بناية دائرة الضمان. ولكَم هي كثيرة التهم الجاهزة، ولكَم هي كثيرة اساليب التعذيب، ولكَم هي كثيرة طرائق القتل، ولكَم هم كثر من يقومون بكلّ ذلك و، لعمري، كَم هم كثر من يُفعل بهم كلّ ذلك. وهكذا، وكلما اخذتني تلك الأفكار، وكلما اطّلعت على حال الناس اكثر كان يثور في أعماقي بركان يتلظى، وكأن كل قصة أو فكرة كانت تأخذني الى مكان مجهول تغيّر فيّ شيئا ثم تعيدني. لقد تغيّرت فيّ أشياء كثيرة الى درجة كنت فيها أعبّر عن غضبي وسخطي وحنقي عن طريق التقارير. كلُ تقرير كنت أرفعه كانت تزداد فيه نبرتي حدة، ثمّ كانت تزداد حدّة في كلّ مرة لم أتلق فيها ردّاً على نبرة التقرير الذي سبق. كنتُ غاضباً ولم أعرف كيف أُنفّس

عن غضبي، لم أعرف كيف أعبّر عن ضعفي وقلة حيلتي الا باستعراضات القوة الخاوية تلك.

استيقظت أحد أيام الشتاء الباردة وكنت أحس أنّ قدميّ مفصولان عن باقي جسدي. كنتُ معتاداً على شتاءات بغداد الدافئة الرطبة، أما شتاء الموصل فلم يكن كأيّ شتاء عشته من قبل؛ فحتى مع كميّات الأمطار التي تكابد المزاريب مجهدة في استيعابها، يبقى في شتاء الموصل ذلك الإحساس بالبرد اليابس الذي يُنهك الجسد، ويُتعب الحواس، ويلتهم الطاقة، ويولد حباً للفراش يفوق بأشواط حبّ لقاء الأهل والأصحاب، أو العمل والدراسة. ولا أعلم ما دفعني الى تكرار نفس الخطأ يوماً بعد آخر. فقد كنتُ أقرر يومياً أن ابقي المدفأة موقدة وإضافة غطاء آخر فوق غطائي المعتاد دون أن أنفّذ أيّ الأمرين، ربما كان ذلك رهناً بحكم العادة، ربما كنتُ أحسبني لم أزل في بغداد، في غرفتي حيث كانت والدتي تُصرّ على إعطائي غطاءً آخر، فأُصرّ على اكتفائي بغطائي؛ فتُصرّ هي وأصرّ حتى أرضخ أخيراً لقبول الغطاء الذي لا ألبث أن أدفعه عنّي بعد أن أغفو أنا أو تُغادر هي. كم كنتُ في حاجة الى إصرار والدتي في شتاء الموصل الذي «يضرب في العظم» كما اعتاد أهل المدينة وصفه باسلوب يبوح بكرههم الشتاء ويوحي

بالترحيب به في الوقت نفسه. وبعد تفكير كسول مرتعش بما كان، وبما قد يكون، نهضتُ كمن يتحدى نفسه للقفز في مياه دجلة الباردة قفزة واحدة تتغلب على غريزة الخوف من الماء وبرودته. أشعلت المدفأة ثم أطفأتها بعد أن تذكّرت أني سأشعل المدفأة الأخرى في غرفة المكتب.

فكرّتُ لبعض الوقت فيما قد يقوله لي أبو سعد، أو يفعله، بعد تقاريري النارية الأخيرة. وانتبهت من سلسلة الأفكار على مشهد وصوت الشاي وهو يفور ويثور على جدران الأبريق ليسيل عليها وينتشر على سطح الطبّاخ ومشاعله. صببتُ لي كوباً وذهبت الى غرفة المكتب، وما أن جلستُ حتى سمعتُ صوت الباب الخارجي. استغربت لذلك، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يطرق فيها أحدهم بابي منذ أن انتقلت هنا أول الأمر عندما جاءني عدد من الجيران وعرّفوني بأنفسهم وواظبوا على إحضار طعام الغداء والعشاء تباعاً وكأنهم كانوا قد وضعوا جدولا فيما بينهم يخبرهم بأدوارهم في تقديم الطعام. لم يخطر لي أنّ ذلك كان أبا سعد أو سائقه لأنهما كانا يمتلكان مفاتيح المنزل ولا يحتاجان انتظاري لأفتح لهم الباب، وخصوصاً في أوقات الصباح حيث يُرّجح أن أكون نائما. توجّهت الى الباب وفتحته وكان أبو سعد واقفاً أمامي.

- صباح الخير! يبدو أنك لا تزال نائماً!

- صباح النور! نعم، استيقظت قبل قليل.

أشعل أبو سعد سيجارة وأعطاني واحدة وسحبني لنقف أمام الجزء المغلق من الباب بعيدا عن المدخل. دخل سائقه ومعه امرأة متشحة بالسواد من أعلى رأسها حتى أسفل قدميها. لم أسأل أو استعلم عن المرأة فقد ظننتها من أقاربهم او معارفهم، أو ربما كانت زميلة لي تعمل لحسابهم كما أعمل أنا.

- كيف حالك؟
- من أيّ ناحية؟
- من جميع النواحي. كيف حالك مع برد الموصل؟ كيف حالك مع العيش بمفردك؟ كيف حالك مع العمل؟
- البرد مشكلة، ولكنني أستطيع تحمّله. وأظنّ أنّ عيش المرء بمفرده نعمة لا يعرفها إلا من لديه عائلة. والعمل يسير بصورة جيّدة. لماذا تسأل عن العمل؟ هل هنالك شيء جديد بخصوصه؟
- ربما هنالك. يعتقد بعض الأشخاص في القيادة أنّك ربما بدأت تحيد عن تعليمات العمل الموكل اليك. وأنك لا تنقل الأخبار وتضع التوصيات بصورة موضوعية بقدر ما تعطي اراءك المستندة على العاطفة والأمور غير ذات العلاقة. وقد ذهب أحدهم الى اقتراح أنّ ولائك قد يكون في مكان آخر، غير «دولة الخلافة»

وأنّك تمثل مشروع «عميل مرتد» وقد يكون عليهم التخلص منك.

- فلنكمل حديثنا في الداخل، إن كان لديك الوقت.

لم يجبني أبو سعد بل أخذني من يدي، كالعادة، ودخلنا الى المطبخ بعد أن تأكد من اغلاق الباب الخارجي.

- هل ترغب ببعض الشاي؟
- نعم، ولكن في قدح صغير، لا أحب شرب الشاي بهذه الأكواب.

صببت له الشاي وأخذته اليه الى غرفة المكتب حيث سبقني وكان قد سحب كرسياً وجلس عند الحاسوب. أعطيته قدح الشاي، وسحبت كرسياً وجلست أمامه.

- هلّا شغلّت لنا بعض الموسيقى؟
- موسيقى؟! ماذا تحب أن تسمع؟
- أيّ شيء لـ «أم كلثوم».. «رُباعيّات الخيّام» إن كانت متوفرة.

شغلّت الأغنيّة.

- ألا يُفترض بالموسيقى و «المعازف» أن تكون مُحرّمة؟!

- مُحرّمة! وهل يُحرّم عاقل حِكَم الخيّام، وكلمات رامي، وصوت أمّ كلثوم؟ هل تظنّ حقاً أنّ جميلاً يحب الجمال يُحرّم هذا الجمال؟
- لا أظنّ شيئاً، ولكني أعلم أنّ من نعمل لحسابهم يحرمونها.
- دعك منهم، فهؤلاء يحرّمون كلّ ما قد يُلهب مشاعر الإنسانية عند البشر.
- لماذا نُساعدهم إذن؟
- لأنّه، وكما أخبرتك سابقاً، مُجرّد عمل.
- لكنّ الناس يموتون جوعاً، وبرداً، وذبحاً من جراء هذا العمل.
- كان الناس يموتون، وهم يموتون الآن، وسيظلون يفعلون لعصور قادمة، نحنُ لسنا إلّا عوامل مسرّعة تختصر مراحل عديدة من مراحل الوصول للسلطة، وبذلك نكون قد وفرّنا على الكثيرين الألم والمعاناة.
- إنّه مجرّد تبرير متهافت لإقناع أنفسنا ببراءتنا ممّا يحصل للناس.
- ليس تبريراً بالمرة. ولا أحد بريء. كُلّنا مسؤولون عمّا يحصل لغيرنا. هل تظنّ أنّ الجالسين بعيداً بصمت ليسوا مسؤولين عما يحدث ههنا؟ هل تظنّ حقاً أنّ مشاعر الحزن والأسى التي يتشاركونها في احاديثهم وعلى صفحات التواصل ليشعروا بالرضا

عن أنفسهم كافية لتعذر لهم تخاذلهم عن فعل شيء حيال ما يحدث حولهم؟

- ولكنّهم لا يساعدون من يقتل الناس أيضاً.
- ولا هم يواجهونه ويمنعونه عن قتل الناس. إن أراد الإنسان حقيقة تغيير شيء فله القدرة على ذلك، أما النحيب والندب فللقعدة العاجزين. والآن، استمتع بالأغنية، ففيها من الحِكم ما يفيدك في حياتك.

بقيتنا صامِتَين «نستمتع» بالأغنية. وفيما كان أبو سعد يهز رأسه طرباً بالأغنية وهو يتمتم كلماتها «سمعتُ صوتاً هاتفاً في السحر..» ويدخن سيجارة بعد أخرى، كنتُ أفكّر فيما نقله لي أبو سعد عن ذلك الذي يريد التخلّص منّي لـ «عمالتي» وكان صوت أم كلثوم يتسلل الى افكاري ويفصلها واحدة عن الأخرى. «لا تشغل البال بماض الزمان..» فكرّت في ما اذا كانت زيارة أبي سعد تلك وحديثه المطّول توديعاً لي. «فليس في طبع الليالي الأمان..» ربما، وتلك المرأة هي بديلتي التي ستسكن المنزل وتقوم بعملي؛ ولمَ لا، فالمرأة تستطيع الوصول الى أماكن لا استطيع الوصول اليها، والدخول الى بيوت لا استطيع دخولها، وبالتالي سماع ما لا استطيع سماعه. «غدٌ بظهر الغيب واليوم لي، وكم يخيب الظنُ في المقبلِ..» أو ربما سيقتلني أبو سعد بنفسه، أو يترك الأمر لسائقه الصامت، والمرأة هي من ستنظف

بقع الدماء التي ستصبغ أرضية المنزل. «والصدرُ قد ضاق بما لا يقال..» لابدّ أنّه سائقه، فهو يحمل مسدّسه دائما، ومن صمته وملامح وجهه، يبدو أنّه قد «تخلّص» من الكثير من «العملاء والمرتدين».. «لا توحش النفسَ بخوف الظنون، واغنم من الحاضر أمن اليقين..»

انتهت الأُغنية عند «يا عالِمِ الأسرار علم اليقين، يا كاشف الضرّ عن البائسين، يا قابل التوبة عدنا الى ظلّك؛ فاقبل توبة التائبين.» فمّد أبو سعد يده الى كيس كان قد وضعه على الأرض بقرب قدمه وأخرج منه كيساً أسوداً أخرج منه مسدساً. ولا حاجة لوصف ما شعرتُ به حينها، ولكنّ وجهي كان يُفصح لأبي سعد عن بعض ما بي. وضع أبو سعد المسدس على المنضدة وقال مبتسماً ابتسامة بددت مخاوفي:

- هذا لك.
- لي؟! ولِمَ قد أحتاجه.
- ليس بالضرورة أنّك ستحتاجه، هو للإحتياط فقط.

ومدّ يده ثانية الى الكيس وأخرج منه صندوقاً بحجم راحة الكف عليه رسمة رصاصات ووضعه الى جانب المسدس.

- أظنّ أنّك تعرف كيف تستخدمه. إن لم تعرف كيفية استخدامه ابحث على شبكة الانترنت، فليس الأمر بالغ الصعوبة.
- من تلك المرأة؟
- المرأة، ظننتُ أنّك لن تسأل أبداً! هي هدية لك.
- هديّة؟! وما يجدر بي أن أفعل بها؟
- ما تفعله بها يعود لك. ولكن عليك أن تبقيها عنّدك على أيّة حال.
- لا أُريد ذلك. هل ظننت أنّني سأُسرّ بهذه الهدية، وتغمر الفرحة غرائزي؟ هل ظننتَ أنّني سآخذها وأفعل بها ما تفعلوه؟ أتريدني أن أغتصبها كما يفعل اولئك الحيوانات بالنساء اللاتي اختطفوهن؟
- قُلت لك، ليس عليك أن تفعل بها شيئاً، ولكن، عليك إبقائها عندك، فقد أقنعتُ أصحاب الأمر أنّك لست «عميلاً او مرتداً» كما اقترح البعض، وأنّك لست إلا شاباً وحيداً تعيش بعيدا عن أهلك ومدينتك وذلك تأثير الوحدة عليك قد عبّرت عنه في تقاريرك، ولأجل ذلك السبب اقترح البّعض أن يرغّبوك ولا يَنسوا فضل كونك من أوائل «المهاجرين»، وألا يركنوا الى الترهيب، في هذا الوقت على الأقل، فاتخذوا القرار بإهدائها لك، وحييّت القرار ورحبتُ به لأنه يعني إعطاءك فرصة أخرى. ولذلك، وركّز

على كلامي هذا جيّداً، إنّ ابقاءها معك واتخاذك الحذر عند كتابتك التقارير القادمة مسألة حياة أو موت بالنسبة لك؛ فلستُ أستطيع الدفاع عنكَ طويلا إن لم تساعدني.

- فيمَ أساعدك؟! ألا ترى أننا نعمل لحساب مجرمين؟ كيف تستطيع النوم ليلاً وأنت تعرف جيّداً ما فعلوا، ويفعلون، بمساعدتنا؟
- ماذا فعلوا؟ أتقصد قتل الأبرياء، واغتصاب النساء، وتجويع الأطفال؟ ألم تقرأ التاريخ أبداً؟ ألَم يكن سكّان «دريسدن» و «هيروشيما» أبرياء؟ ألم يكن فلاحو الاتحادي السوفيتي أبرياء؟ كلّ ذلك ممّا يفعله الإنسان. ما الفرق بين تفجير نفسك وقتل عشرة أبرياء وعدو واحد وبين اطلاق صاروخ من طائرتك أو سفينتك لتقتل عدواً وعشرة أبرياء، الا في جرأة الأول على النظر في عيون من سيقتلهم؟ فيمَ يختلف من يغتصب امرأة لأنها من بلد العدو عمّن يغتصب امرأة لأنه يعدّها كافرة؟ هل يختلف حقيقةً من يجّوع قرية عمّن يجوّع بلداً إلا في إجماع بعض الدول واتفاقها على تجويع هذا والسماح لذلك بالأكل؟ ألا ترى أننا بنو الإنسان نفعل ما نفعل لأننا نرغب بفعله ثمّ نقرر بعد ذلك أنّ نفس الفعل يصحّ في حال ولا يصحّ في حال أخرى؟ ولنفرض أنّي لا أعمل لحساب هذه الجماعة، وإنّما لصالح دولة ذات مؤسسات وقوانين، ودخلت

هذه الدولة في حرب، بغض النظر عن سبب الحرب، مع دولة أخرى فغزتها وجوّعت أهلها وشرّدتهم وأغتصب جنودها نساء تلك الدولة، هل كوني أعمل لصالح دولة، وليس جماعة، جدير بتخفيف وطء ما أقترفه؟

- تستطيع ألّا تشارك في أفعالها.
- أنت مشترك في كلّ ما يحدث منذ ساعة ولادتك ووعيك. وهكذا، نعود لمسألة المسؤولية، مجرّد صمتي إزاء ما تفعله دولتي دليل ادانة وتواطؤ في الجريمة.
- ولكنني أتحدث عن حالنا الآن. وأظنّ أنّك تدرك جيّداً حقيقة ما سأقوله، الناس ههنا جوعى، إنهم يموتون جوعاً وبرداً وألما. فإن كنتم دولة، كان عليكم توفير ما يُفترض بالدولة توفيره من خدمات، وغذاء، وماء، ودواء، ومرتّبات للموظفين، وأشغال للعاطلين، ودعماً للمحتاجين؛ وإن لم تكونوا دولة، فعليكم ترك رقاب الخلق وتذروهم يختارون من يحكمهم بأنفسهم، لا أن تفرضوا عليهم دولتكم بالقوة.
- هذه هي نقطة القوة لدينا. فنحن دولة ولسنا دولة. من لا يعرف تفاصيل الوضع إلا عن طريق الإعلام يرانا دولة، وبذلك يرغب في الانضمام لنا والهروب من حياته الفاشلة واللجوء الينا؛ وأهل

المدينة الذين يعيشون الواقع يعرفون جيّداً أننا لسنا دولة، ولا يزالون يؤمنون بالدولة المدنية ولذلك لا يمكنهم أن يسخطوا علينا بقدر سخطهم على الدولة التي تخلّت عنهم، فقطعت عنهم مرتّباتهم، وعاملتهم كغرباء في بلدهم، واعتبرتهم أعداءً لها، وحشّدت ضدهم على أسس قومية وطائفية، وبذلك نكون رابحين لأننا قد نُرى أرحم عليهم من دولتهم، ومن ثمّ قد يلتجئ البعض الينا.

- هل كلّ شيء عندك ربح وخسارة؟ أو.. دعك من هذا السؤال. عندي سؤال أرجو أن تجيبني عليه. هل لديك عائلة؟ زوجة وأطفال؟
- ربما يكون لدي، لماذا تسأل؟
- لأنني أظنّ لو أنّ أطفالك وزوجتك كانوا يعيشون هنا لتغيّر رأيك في ما نفعل.
- ولماذا سيكونون هنا! أنا أعمل هنا، وأتلقى أجراً لقاء عملي. وليس مهماً من ينتصر، ليس مهماً دافع هذا الفعل أو ذاك ما دُمتُ أتلقى أجري. سيّان عندي أن اعيش في الموصل، أو بغداد، أو طوكيو، أو سان فرانسيسكو، فكلّها مدن حيث يعيش الناس، ولا يعني اختلاف السنتهم اختلاف طباعهم وغرائزهم.

- ولكنني لم آت الى هنا من أجل المال. أتيت، ويا ليتني لم آت، لأكون في وطني الذي شاه وجهه ولنا فضلٌ كبير في ذلك.

تنهدّ أبو سعد وسكت هنيهة.

- أُنظر، إنّك بلا شكّ واسع الاطّلاع، ولديك من المعلومات ما قلّ نظيره عند الكثير من أقرانك؛ ولكنّ المعلومات وحدها لا تكفي لفهم الدنيا. معلوماتك جاءت من القراءة. وهنالك الحكمة، والحكمة لا تأتي إلا بالتجربة. وقد علّمتني الحكمة ألّا مكان للعاطفة في هذا العالم. يتّفق العقلاء على إبقاء شؤون العمل في العمل. ولكن ما لا يفعله الكثيرون هو ابقاء شؤون البيت بعيدا عن العمل. وأنت تجلب شؤون بيتك، وطنك وأهلك، الى عملك. ولهذا لا تستطيع رؤية ما نفعله كما أراه أنا، ولا أظنّ أنّك ستفعل في المستقبل القريب. هذه نصيحتي لك: حاول استطاعتك أن تفصل بين الاثنين، لأنّ حياتك باتت مرهونة بذلك. وهذا الأمر سينتهي إن عاجلا أو آجلا، وبعدها تستطيع عيش الحياة التي تريد، في المكان الذي تريد. أمّا الآن فقد تأخر الوقت، وعليّ الذهاب. كنتُ شبه موقن من ردة فعلك حيال «فاطمة»، هذا هو اسمها، وأنا سعيد بذلك. اعتن بها جيّداً، وإن

احتجت لأي شيء تعرف كيف تتصل بي. ولا تنس ما أخبرتك به حول تقاريرك. مع السلامة!

نهضتُ وسرتُ خلف أبي سعد حتى السيارة. لم أنتظره كعادتي حتى يركب ويغادر. أغلقت الباب الخارجي وعدتُ الى كرسيي أمام الحاسوب.

انقضَت ساعات وأنا احدّق في شاشة الحاسوب دون أن أراها. كنتُ ممسكا بالمسدس أقلّبه يمينا وشمالاً، اخرج مخزن الرصاص منه ثم اعيده، وأضع فوّهته في فمي تارة، وأمام جبهتي تارة أخرى. لم أكن أفكّر في الانتحار، ليس حينها بأية حال، ولكن كنتُ أفكّر. فكّرت في امور عديدة، فكرتُ في أمور غريبة. فكرتّ في ما سأفعل بتلك البائسة التعيسة الملقاة في احدى الغرف، «فاطمة»، هكذا أسماها أبو سعد. هل كان ذلك اسمها الحقيقي؟ لم أظنّ ذلك، فلابدّ أنه الاسم الذي اطلقوه عليها بعد اكراهها على اعتناق الاسلام. فكرّت فيمن يغيّر دينه مُكرَهاً، كتلك المسكينة، هل سيحاسبه إله دينه الجديد، أم سيتولى ذلك إله دينه القديم؟ أو ربما سيتناوبان على حسابه، هذا ان كان لأي منهما وجود. هل تعني غلَبة قوم على قوم آخر غلَبة الهة القوم الغالب على الهة القوم المغلوب؟ ولو كان الأمر كذلك، فلماذا لا تعفينا الآلهة الرحيمة من نزاعاتها وتحلّ مشاكلها بنفسها! كيف

سأبيّن لفاطمة أني لست كالذين أعمل معهم؟ فإن لم أكن مثلهم، لماذا لم أزل أعمل معهم؟ ماذا سأقول لها ويواسيها فيما فعله بها من كانت عندهم قبلي؟ لو كنت ما أزال أؤمن بالآلهة وجنانها وعذاباتها لوعدتها الجنان بملء فمي، ولكِلتُ الوعيد بأشكال العذاب لظالميها، ولكني لم اعد واثقاً من وجود الآلهة المزعومة تلك، ولو كانت موجودة فلست أظنّ أنّ الإنصاف من خصالها. لماذا أعطاني أبو سعد المسدس؟ هل هو بالفعل لحمايتي؟ فإن كان كذلك، ممّن؟ ربما ليحميني من فاطمة، وهل هي خطيرة الى تلك الدرجة؟ أو ربما ظنّوا أني سأستخدمه معها إن لم تنصع لما أريد منها طائعة راغبة. آه.. أعادتني هذه الأسئلة وهذه الـ «ربما» الى ايامي في ملجأي ومنفاي خارج العراق، ولكم أتمنى لو أني بقيت هناك.

هذه بعض الأفكار التي ابتلعت الزمان والمكان أمام الحاسوب حتى حلّ المساء وبدأ الليل يلّوح لي من النافذة المطلة على الحديقة، حتى بدأ الليل يُنهي مصاعب البعض ومشقّاتهم، ويبدأ معاناة آخرين كثر يشاركون هذه المسكينة في سوء الحظ وقساوة الأقدار.

بقيتُ ساعة أفكّر في الطريقة المناسبة للدخول على تلك المسكينة، ويا لصعوبتها من مهمة. كنتُ أنا الآخر أخشى الدخول عليها ومواجهتها، بل ربما كنتُ أخشى لقاءها أكثر مما خشيّت هي لقياي. ولكن كان لابدّ لي أن

أقوم بتلك المهمة السخيفة، وتحمّل الوضع السخيف في مرحلة ما، فربما لم تكن قد أكلت شيئاً منذ أيام، وربما كانت مريضة أو كانت في حاجة لدخول الحمام. لم يكن أبو سعد قد أعطاني من المعلومات ما يكفي، كان كل ما عرفته انّ اسمها «فاطمة» وأنّها «هديّة لي، أفعلُ بها ما أشاء» وأنّها قابعة في احدى الغرف خلف باب موصد.

نازعتُ نفسي حتى أجبرتها على القبول. توجهت الى المطبخ وأخرجت بعض الطعام من الثلاجة ودفأته ووضعته في صينية وأخذتها الى غرفة فاطمة. طرقت الباب ثمّ أدرتُ المفتاح في القفل وفتحت الباب. دخلتُ الى الغرفة التي لا اذكر أني دخلتها منذ جولتي الأولى في المنزل أولّ وصولي، الا عندما كانت تأخذني نوبات التفكير فتجعلني أذرع المنزل وجميع غرفه جيئة وذهابا. كانت فاطمة واقفة في احدى زوايا الغرفة ولم تزل ملتفحة بالأسود. وقَفَت في تلك الزاوية كمن يواجه كلباً مسعوراً، ولو كان في مقدورها لحفرت الحائط بأظافرها لتهرب مني وتنفذ بجلدها.

- مرحباً!

لم تُجبني.

- هلّا رفعت الخمار عن وجهك؟

رفعته بيد مرتجفة فيما أسندت يدها الأخرى الى الحائط خلفها. كانت عيناها متورمتين من البُكاء، أو من قلّة النوم.

- أرجوك! أستحلفك بكل ما هو غال على قلبك..

لم أدعها تُكمل، فقد عرفت من ارتعاد قسَمات وجهها الصغير ما تريد قوله، وما كان اكمال ذلك الحديث أشقّ على لسانها مما هو على أُذنيّ.

- لا تخافي. أنتِ في مأمن ولن يمسّك أحد بسوء.

أغلقتُ الباب خلفي وجلست على الأرض فوق فراش كان موضوعاً الى جانب السرير. وضعتُ صينية الطعام أمامي واعتصرت مُخّي فلم أعرف ما يمكن قوله للمسكينة.

- ألستِ جائعة؟
- لا، شكراً.
- هلّا جلست؟

هزّت رأسها موافقة على مضض وجلست فوق نهاية الفراش عند زاويتها.

- ما اسمكِ؟
- فاطمة.

- لماذا أنتِ خائفة؟ أعلمُ أنك قد قاسيتِ الكثير. وأعلمُ أيضاً أنّ لا سبب يدعوكِ لتصديق كلمة مما أقول. لكن صدّقيني، ليس هنالك ما تخشينه هنا. هل لديكِ ثياب غير التي ترتدين؟
- نعم، لدي.

وأشارت الى حقيبة الى جانبها.

- حسناً، ستكون هذه غرفتك. سأترك الطعام هنا في حال غيرت رأيك. وهاكِ مفتاح غرفتكِ في حال أردتِ اقفالها. غرفتي في نهاية الرواق، فإن احتجت الى شيء لا تترددي في مناداتي. ولكن لي رجاء واحد عندك، لا تحاولي فعل شيء أحمق، لسلامة كلينا.

نهضتُ وغادرت الغرفة وأنا أحس بنظراتها تكاد تخترقني. ما كنتُ لأُجازف معها في أولّ ليلة، فرغم شفقتي على حالها كنتُ اشفق على حالي أكثر. ولذلك تأكدت من إقفال جميع الأبواب الخارجية والباب المؤدي الى سطح المنزل، وبالطبع لم أنس أن آخذ المسدس والرصاصات واخفيهم في صندوق صغير أضعه تحت سريري. أطفأت أضواء المنزل إلا ضوء الرواق الذي تقع الحمام في نهايته لتسهيل المهمة عليها في حال قررت الخروج من غرفتها. عدتُ الى غرفتي واستلقيت على سريري أفكّر في حال فاطمة. وآخر ما اتذكره قبل أن يغلبني النعاس كان تشبيها اضحكني، وهو أني بعد تفكير

أعمق في حالي، وجدتني لا اختلف عن فاطمة كثيراً، فلسنا الا رفيقي سجن لكلّ منهما جريمته.

كانت وتيرة قصف قوات التحالف قد ازدادت عن المعتاد، فبعد أن كنّا ننتظر سماع دوي الانفجارات مرة أو اثنتين كل شهر، أصبح موعدنا اسبوعياً، أو يومياً في بعض الأحيان. ترافق ذلك مع آمال مكبوتة بين الأهالي تبعثها مناشير تلقيها الطائرات بين حين وآخر تعد أهل المدينة بـ «نصر قريب»، وتحثّهم على التعاون مع القوات الامنية استعداداً لـ «ساعة الصفر»، والتي استقرأت من منوال المعارك الدائرة في المدن الأخرى والخصومات والمساومات السياسية أنّها ليست قريبة.

تحسنت علاقتي بفاطمة، فبعد قطيعة الأيام الأولى وتجهمها، أضحت ترد تحيّتي بعبارات قصيرة لا تخلو من بعض الخوف وشيء من الكره أيضا. وبدأت كذلك، بين يوم وآخر، تتناول الطعام في حضوري. وبعد نحو شهر من مجيء فاطمة الى المنزل، وفيما كنتُ جالسا الى الحاسوب اكتب تقريراً عن الجوع والخوف الذين خيّما على المدينة وأهلها، جلبت لي فاطمة قدح شاي. لم أكن معتاداً على شرب الشاي في قدح صغير، إلا أنّ الاستثناء في تلك الحالة كان واجباً. أعطتني الشاي وعلى وجهها ابتسامة حزن صغيرة،

أخذت الشاي من يدها وقلتُ «شكراً»، ومشاعر السرور تملأ جسمي حتى ارتسمت على أدّق تفاصيل وجهي. لم تُجبني، أومأت برأسها وغادرت.

انتبهت بعد فترة من بدء فاطمة بترك باب غرفتها مفتوحاً الى أنّها تقيم الصلاة بعد كل أذان. وفي احدى المرات كمِنتُ لها منتظراً أذان الظهر فسمعتُ خطواتها تبتعد باتجاه الحمّام، ثم صوت الماء، ثم خطواتها مرة أخرى عائدة الى غرفتها. ذهبت اليها ووقفت في باب الغرفة أراقبها تُصلّي حتى انتهت بالتفاتة الى اليمين «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، والتفاتة الى الشمال «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

- تقبّل الله!

قلت لها بنبرة ساخرة.

- منّا ومنكم.
- لماذا تُصلّين؟
- لأنّه يجب على المسلم الصلاة!
- لم أسأل عن المسلم. أنتِ، لماذا تُصلّين؟
- الأمر سيّان، أنا مسلمة وعليّ ان أُصلّي.
- همم.. ولماذا عليك الصلاة؟

- لأنّه أقلّ ما يجب علينا أن نفعله لشكر الله وحمده على نِعمه الـ..
- على ماذا تشكرينه؟ أتشكرينه بعد كلّ ما فعله بك؟
- ليس الله من فعل بي..
- لماذا سكتّ؟ قولي ما يدور في خلدك، فليس هنالك ما تخشينه.
- ليس الله من فعل بي هذا، أنتم فعلتموه.

نظرتُ في عينيها والدمع يترقرق فيهما. كيف لي أن أوّضح أنّهم «هم»، وأنني لست منهم؟ كيف لي أن أقنعها بذلك وأنا لا استطيع اقناع نفسي باختلافي عنهم الا في تفاصيل صغيرة؟! لم يطل صمتي، فقد أزاحت عن كاهلي حمل الرد على ذلك الإتهام.

- أشكره على وجودي هنا مع انسان مثلك، وهو مما يستحق الشكر عليه لمن يعلم ما حلّ بمن كنّ معي.
- أعرف، أعرف.. أو أظنّ أني اعرف. هل آذوك في المكان الذي جئت منه؟
- نعم، بين حين وحين، لا شيء يُذكر؛ عضّة امرأة أفريقية لتأخري عن اداء الصلاة لا أظنّ أن أثارها ستزول عن كفي ما حييت، ضرباتُ عِصيّ على ظهري وجنبيّ لمحاولتي تخليص احدى البنات

اللاتي كنّ معي من أوربية كان تهوي عليها بالضربات بعقب بندقيتها.

- هل ذلك فقط؟
- أتسأل عمّا اذا اغتصبني أحد كما فعلوا مع أكثر رفيقاتي؟
- نعم، الى جانب أشياء أخرى.
- لا، ربما أنا سعيدة حظٍ كما قالت لي «أمّ القعقاع».
- من هي «أمّ القعقاع» هذه؟
- إنها الموكلة بتجهيز النساء قبل ارسالهن اليكم.

ووضعتني مرة اخرى جنباً الى جنب مع اولئك الوحوش. لمَ تُصرّ على فعل ذلك، لم أدر. ربما رأت ما تفعل كلماتها بي فأرادت احداث أقصى ضرر تستطيع الكلمات احداثه.

- ولماذا وصفتكِ بسعادة الحظ؟
- كانت كلماتها «ستذهبين لشخصية مهمّة. وبحسب ما نقلت احدى الأخوات عن زوجها، فإنّه شاب أعزب ويحظى بثقة القيادة».
- لا حولّ ولا قوّة الا بالله. لعنهم الله، ما اقبحهم! عموماً، دعينا من «أمّ القعقاع»، ماذا تقرأين في الصلاة؟

- آيات القرآن طبعاً. وهل هنالك شيء آخر؟!
- لا، ولكن.. أين تعلمّت القرآن؟
- بعدما أخذونا، وأرهبونا، وعذبونا، وأسلمونا، قاموا بتحفيظنا أجزاءً من القرآن، ولم يكن ذلك صعباً علي، فأنا احفظ منه آيات كثيرة من قبل.
- وأين تعلّمتها؟
- في الكلية، قسم اللغة العربية.
- آها، جميل. اشكري الله واحمديه كما شئت. وبالمناسبة، ليس عليكِ أن تُصلّي هذه الصلاة على وجه التحديد. اشكري الإله الذي تريدين بالطريقة التي تريدين. فلا «أمّ القعقاع» هنا ولا غيرها. وإن احتجت شيئاً محدداً لأجل صلاتك فأخبريني.
- شيء؟! مثل ماذا؟
- لا ادري، شموع، بخور، أو إن كان صليباً فربما يمكننا صنع واحد..

تركتُها وهي تنظر اليّ مذهولة، وخرجتُ ادخّن في حديقة المنزل.

تغيّر الكثير منذ مجيء فاطمة، ليس في العالم الآخر خارج المنزل، فهنالك في المدينة لا يزال الناس يموتون جوعاً وبرداً وحُزناً وقصفاً وذبحاً وحرقاً

وتفجيرا. لا يزال أهل المدينة يسترقون أملاً من هنا وأملاً من هناك ليواصلوا العيش. لا يزالون يُقصّرون ثيابهم ويطيلون لحاهم ليُبقوا على عائلاتهم وأنفسهم. ولا تزال النسوة يضعنَ الخمار فوق الخمار، ويلبسن الجلباب فوق الجلباب ليحمين ما تبقى من كرامتهن، ويحافظن على شرفهن وأرواح أزواجهن. ولا يزال الجوع يُنزل سياطه بضربات تتردد برتابة على ظهور أهل المدينة العارية. ويبدو أنّ أكثر الناس تأثراً هم الأكثر ايماناً بفكرة الدولة والمدنية، فهذا استاذ جامعي قطعت الحكومة عنه مرتّبه فأخذ يعيل أطفاله من عمله محاسباً في محل يعود لأحد طلبته، وذلك مهندس يعمل في مخبز بعد أن دمّر القصف مشروع الماء الذي كان يقوم عليه حتى بعد انقطاع مرتّبه، وذاك طالب دراسات عليا يعمل حمالاً في مخزن صديق أبيه بعد أن أغلقت الجامعة أبوابها وتحوّلت لمرعى أبقار ومسكن لعوائل «المهاجرين» فيما غدت مكتبتها مقراً للجان وضع المناهج الدراسية المتوافقة مع «الحكومة» الجديدة. هنا طبيبة تساعد والدتها المُدرّسة في الخياطة، وهنالك قاض لا تعمل شيئاً سوى قضم اظافرها بأسنانها وهي تتفكر في ما قد يحلّ بها عِندما يُبلغ عنها أحد الموالين للتنظيم. كلّ اولئك، كفاطمة، يحمدون ربّهم ويشكرونه لأنهم لم يلاقوا، بعد، مصير زملائهم واصدقائهم القابعين في معتقلات «دولة الخلافة»، أو الأخرين الذين تعفنّت جثثهم في قعر إحدى حفر الخلافة. لا، ففي خارج المنزل لم يتغيّر الوضع كثيراً، فالوضع لا يزال

يسير دونما تعثّر من سيء الى اسوأ. إنّما التغيير هو ما حدث لي منذ مجيء فاطمة. لم أرَ نفسي بهذه السعادة، وهذا الحزن، منذ رحيلي عن بغداد. فقدت أعادت لي حركة فاطمة في المنزل ذكريات والدتي وحركتها في منزلنا في بغداد، بين ترتيب، وكنس، وطبخ، وغسل وأشياء أخرى مما يملأ النسوة به وقتهن من أعمال المنزل. لو لم تكن فاطمة حبيسة هذه الجدران، لو لم تكن بعيدة عن حياتها، لكانت واقفة تشرح لطلابها أمام السبورة الفرق بين الفعل والفاعل، لكانت ترتدي تنورة وسترة نيليتين فوق قميص أبيض، ولا أعرف لماذا أتخيلها دوما بهذا الزي، وبيدها قطعة طبشور تجرّ خطوطاً تحت كلمات جملة كتبتها على السبورة وتكتب تحت كلّ كلمة موقعها من أقسام الكلام؛ ولكنّها حبيسة، أصبحت أعمال المنزل كلّ ما تستطيع القيام به. وأظنّ أنّ ذلك ينطبق على والدتي أيضاً، فلو لم تكن حبيسة أهلها قبل أن تتزوج والدي، وهم قرروا عنها ألّا حاجة بها للتعلم والشهادة، فربما كانت تجلس خلف مكتبها توّقع هذه الورقة أو تلك العريضة، أو في قاعة المحكمة تحاول اثبات براءة رجل بريء، فلا أظنها تدافع عن شخص تشك في براءته، أو ربما كانت هي الأخرى تدرّس اللغة العربية في احد الصفوف مرتدية جُبّة بُنّية، نعم.. فالجُبة أليق بعمر والدتي من الثياب التي تخيلتها لفاطمة. ولكنّ والدتي حبيسة، ولذلك فليس لديها إلا الأعمال المنزلية. ملأت فاطمة بحركتها فراغ المنزل، وبكلامها القليل الفراغ داخلي. كان

وجودها الشيء الوحيد الذي يبهجني وينسيني، مؤقتاً، ما تقاسيه المدينة وأهلها، فأعود لأعيشه كلّ ليلة على فراشي؛ وكان كلامها أكثر شيء يُحزنني ويذكّرني بما تقاسيه المدينة وأهلها، ودوري في ذلك. ومع أنّها أصبحت تبادلني الحديث، وتبدأنيه أحياناً، إلا أنّها لم تزل مصرّة على اعتباري واحداً «منهم»، فلم تُشر اليهم أبداً بـ «هُم» بل تصرّ على استخدام «أنتم». وقد ذكرتني طريقة فاطمة في الكلام اليّ بطريقتي في الكلام الى أبي سعد، حيث يبدو أنّ الجميع مشتركون في محاولة النأي بأنفسهم عمّا يحدث. حدّثتني فاطمة ببعض القصص التي كانت تتبادر الى سمعها عن رفيقاتها الأسوأ حظاً، حدّثتني عن أشكال التعذيب الجسدية والنفسية التي تعرّضن لها؛ فقد سمعت مرّة احدى الحارسات تحدّث رفيقاتها بقصّة ضحكن منها ضحكاً كالبكاء. كانت القصة عن احدى الشابات المختطفات، عرفتها فاطمة؛ فبعد أن اشتراها احد اولئك الوحوش، وتيقنّه من رفضها لأن تكون محظيّته إلا مُكرهة، وضع مسدسه تحت الوسادة في مكان يسهل عليها الوصول اليه. وعندما سحبت المسكينة السلاح ووضعته في فمها لتُنهي حياتها، انفجر الخبيث ضاحكاً على سذاجتها، حيث كان قد أفرغ مخزن الرصاص من المسدّس. قصّت عليّ فاطمة الكثير من تلك القصص التي كانت كلّ واحدة منها تذهب بجزء من روحي، أو ما تبقى منها. وقصصتُ عليها أنا بدوري أحاديث أهل المدينة وأخبارهم. حدّثتُها عن شوق أهل المدينة

الحبيس لأصدقائهم المسيحيين، حدّثتها عن الشموع التي أضاءها بعض المتسللين في الكنائس المحروقة، وحدثتها عن نفسي طمعاً في ألّا تحصيني «معهم». أخرَسني ردّها، «هل تريد أن تقارن نفسك بي؟ هل تقترح أنّ كلا منا حظيَ بحرية الإختيار نفسها؟»، لم أستطع الإجابة، فقد كانت محقّة، وما فعلته معها لا يجعل منّي انساناً طيّباً، بل مجرّد انسان يحاول التكفير عن ذنوبه. لم يبق لديَ ما أقوله لها، فكلّ ما كان في رأسي كان يدور حول فكرة واحدة، أنني «مِنهُم».

استيقظت أحد الصباحات وفكرة واحدة تدور في رأسي، لم أسأل «فاطمة» عن اسمها الحقيقي بعد! كيف حدث ذلك؟ كيف يُعقل أن اتغاضى عن أول الأشياء التي يسأل عنها الناس الطبيعيون حين تعارفهم؟! ولكن لم يكن شيئاً من حياتي وحياتها والظروف التي نعيشها طبيعياً، فلا عَجب ألا يكون التعارف طبيعيا. سألتها ذلك الصباح عن اسمها:

- فاطمة، ما أسمكِ؟
- فاطمة!

قالتها مع ابتسامة خبيثة صغيرة.

- لا، أقصد اسمك الحقيقي؛ اسمكِ قبل أن..

- أعرفُ ما تقصد. لماذا تسأل؟
- لا لسبب محدّد، أعتقد أنّه الفضول، أو حكم العادة.
- ليس الفضول سبباً كافياً. عندما يكون لديك سبب آخر، قد أخبِرك. ولماذا تهمّ معرفة اسمي؟ لا اظنّ أنك كنت لتتصرف معي بأسلوب مغاير لو تغيّر اسمي. ولا تنسَ، أنّك لم تُخبرني ما اسمك أنت الآخر!
- لمَ تريدين معرفة أسمي؟
- لا أريد معرفته، ليس الآن بأية حال. لن يُغيّر اسمك من نظرتي عنك وتعريفي لك.
- وما هو تعريفكِ لي؟
- أنّك شخصٌ يُدعى «الأُستاذ»، ويعمل مع المجرمين، ولكنه ليس مجرماً بقصد، بل هو شريك في الجريمة عن غير قصد، أو بحسن نيّة. ويحاول ذلك الشخصُ فعل ما يمكنه لُيكفّر عن الذنوب التي ساعد في ارتكابها.
- وهل كفّر عنها؟
- ليس حتى الآن، ولكن يبدو أنّه يسير في الاتجاه الصحيح.

وأعادت عينيها الى القدر الذي كانت تعدّ فيه الطعام على الطباخ. تركتها دون أن أُجيب وتوجّهت الى غرفتي، دخلت وأغلقت الباب. رحت أذرع

الغرفة طولا وعرضاً. ماذا تريد مني؟ ماذا تتوقّع أن أفعل؟ لستُ إلا مثلها أعاني أفعال من وثقتُ بهم. فقد وثقت بالحكومة والدولة وذهبت اعطي الشرعية لهما في انتخابات بعد اخرى، وها أنا هنا بعد أن فشلت الحكومة في عملها، بعد أن فشلت الدولة في حمايتي. وتلك «فاطمة» أيضاً، أو مهما كان اسمها، فلولا فشل الحكومة والقوات التي ادّعت حمايتها وبلدتها، لما كانت تجلس قبالتي اليوم. ولكنّها ها هي تطلبُ مني، انا الأشبه بحالها، أن أفعل ما عجزت قوات دولة واقليم عن فعله. لكنّي لا ألومها، لا، فهي كالكثير من البسطاء المظلومين الذين يتوجهون نحو أمثالهم من الضعفاء باللوم والعتاب. وهل يمكن لومهم على ذلك؟! فمن غير اقرانهم يمكن لومه إلا الحكومات العنيفة القاسية؟ وما جزاء لوم الحكومات الا المعتقلات، والتعذيب، والقتل؟ المساكين العاقلون خيار آمن لإلقاء اللائمة، فهم لا يعضّون كما يفعل أرباب الجنود والأسلحة. لا استطيع لومها، كيف ألومها وأنا أظنّ أني احبها! باللسخافة، فها أنا قد أثرّت على عقلي الوحدة لأظنّ أني احب الأنثى الوحيدة التي استطيع الحديث اليها، أو ربما أنني أُلخبط فقط بين حزني وشفقتي عليها وبين مشاعر الحب. لا أُنكر أنّها تعجبني، ولكن أن احبها! ذلك أكبر من أن يتحمله عاقل.

بعد يومين أو ثلاثة من حديثي وفاطمة عن الأسماء، وفي حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، استيقظت من النوم والأفكار تتقاتل في رأسي.

كانت الأفكار جميعها تدور حول موضوع واحد، ما الذي يمكنني فعله للتكفير عن ذنوبي؟ نهضت من الفراش وخرجت الى الحديقة أنفث الدخان في ندى الليل. فكرّت في والدتي وكم اشتقت لها. فكرّت في ما قد يفعله والدي لو كان مكاني. بدأت تلك الليلة تتبلور خطة في بالي. لا اعرف ما زرَعها، او كيف زُرِعت، لا اعرف مدى عقلانيتها، كلّ ما كنتُ أعرف عنها أنّها بَدت ملائمة، وأنّها تحتاج الى تفكير أطول، ولكن ليس في الحديقة. دخلتُ المنزل وجلست على الأرض أمام باب غرفة فاطمة المقفل، وأخذت أدخّن السيجارة بعد الأخرى، حتى لاحظتُ أنني لم أعد احتاج الى قدّاحة. بدأت ملامح الخطة تأخذ شكلاً بعد كل سيجارة، وكأنّ الدخان كان مادّة خطّتي، فكلّما دخّنت تصاعدت وتيرة البناء. لم أكن لأستطيع الشروع بتنفيذ الخطة قبل أن يطلُع الصباح، وما كان النوم ليلحف جفنيّ تلك الليلة. أعددت الشاي، ورحت أصبّ الكوب اثر الكوب حتى بدأت العصافير زقزقتها، الصوت الذي كنتُ لأنزعج منه في أيّ يوم آخر.

حلّ الصباح، وهذا صوت خطوات فاطمة وذلك صوت الماء في الحمّام. جاء وقت وضع أساسات التنفيذ.

- صباح الخير! هل نمتِ جيداً؟

- صباح النور! نعم، ولكن يبدو عليك أنك لم تنم جيداً.
- صحيح، لم أستطع النوم، كنتُ أفكّر..
- فيمَ؟
- في اشياء كثيرة. لابدّ أنّك مشتاقة لأهلكِ؛ ماذا تعلمين عن أخبارهم؟
- الشوق يقتلني، ولكن يطغى على شوقي لهم شعور القلق على حالهم، والدي على وجه الخصوص، فهو مريض. لستُ أعلم شيئا عن أخبارهم، فقد كانت الفوضى تعصف بقريتنا حين غزو التنظيم لها. فقد أخذوا النساء الشابات وعزلوهنّ عن الرجال والعجائز. وأظنّ أنهم خيروهم بين الإسلام واعلان البيعة للتنظيم أو ترك بيوتهم وممتلكاتهم والرحيل عن القرية، ولكنني لست موقنة مما حدث لهم.
- ألم تتصلي بهم منذ ذلك الحين؟
- لا، وكيف يمكنني ذلك؟! فلم يكن لدينا مثل تلك الرفاهية في المكان حيث احتجزونا.
- أليس لديك طريقة للاتصال بهم والاطمئنان على حالهم؟

- هل تعني أنّك ستسمح لي بذلك؟! قد أستطيع ايجاد حساب أخي على موقع «فيسبوك» فهو الوحيد في عائلتنا الذي يستخدم الإنترنت.
- جيّد. هيّا معي، ولكن بعد أن تُعدّي بعض القهوة لنا.
- حاضر! خمس دقائق وتكون القهوة جاهزة.

ذهبتُ الى غرفة المكتب وشغلّت الحاسوب في انتظار فاطمة والقهوة. جاءت فاطمة الى غرفة المكتب تحمل صينية فيها فنجاني قهوة وكأس ماء.

- هاتها عنكِ. اسحبي كرسياً وتعالي اجلسي بجانبي.

فتحت موقع «فيسبوك» من الحساب الذي كنت استخدمه في متابعة أخبار المدينة وصفحاتها، وبعد عدة محاولات بحث وجدنا حساب أخي فاطمة، فأرسلت اليه رسالة كتبتُ فيها:

السلام عليكم،

أنا شخص أعيش في مدينة الموصل. لديّ معلومات عن أختك. أرجو الرد على رسالتي حال قراءتها.

- لا أظنّه مستيقظاً في هذا الوقت من النهار، ربما بعد ساعتين.

عللّت فاطمة لمَ لن أتلق ردّا من أخيها في هذا الوقت.

- لا بأس، لدينا متّسع من الوقت.
- لماذا تفعل هذا؟
- لماذا أفعل ماذا؟
- لماذا تخاطر بنفسك لأجلي؟
- لأنني لستُ «منهم». وليست مخاطرة كبرى على أية حال.

انتظرت فاطمة دون كلل أمام شاشة الحاسوب فيما خرجتُ الى الحديقة أدخّن وافكر في تتمة خطتي، أدرسها جيّدا، أقلّبها مرة بعد أخرى، أبحث عن عيوبها واحاول تشذيبها. آنسني النظر الى فاطمة عبر نافذة الغرفة وهي جالسة أمام الحاسوب تلاعب خصلات شعرها، تصففها ثم تعود لتنثرها. تأخر الرد، وحلّت الظهيرة، فقامت فاطمة تعدّ طعام الغداء لنا تعلو وجهها ابتسامة فرح وخطوط قلق ارتسمت على جبينها وتحت عينيها. أمّا أنا فقد بقيت جالساً أمام الحاسوب أفكّر في أبي سعد. هل يجدر بي اخباره بخطتي؟ هل يمكنني الثقة به؟ لم يكن أبو سعد انساناً أقلّ من غيره، ولكنّه كان يعرف متى يُظهر عاطفته ومتى يكبتها ويترك للمنطق زمام القيادة. ولكن كيف لي أن انفّذ خطّتي دون اخبار ابي سعد؟! صحيح أنني قد حزمت أمري على

التنفيذ مهما كان الثمن، ولكني ما كنتُ لأخون ثقة أبي سعد، فقد كان مُخلّصي في مرّات عديدة، ولولاه لما كنتُ على قيد الحياة. أضف الى ذلك أنّه أهمّ العناصر التي يعتمد نجاح الخطة عليها.

«وعليكم السلام.. أرجوك أخي اخبرنا ماذا تعرف عن أختي. هل هي على قيد الحياة؟ اين هي الآن؟ من أنت؟»

كان هذا ردّ أخي فاطمة على رسالتي، وجرت المحادثة بيننا هكذا:

- ليس مهمّا من أكون. اختك على قيد الحياة، وهي بخير ولم تُصب بأي أذى. أين تسكنون الآن؟ وهل جميع أهلها بخير؟
- نسكن حالياً في مدينة «دهوك»، كلّنا بخير. الجميع يقتلهم القلق عليها. أرجوك أخبرنا أين هي، فمنذ أن اختطفها المجرمون وكلّ أيامنا مجلس عزاء.
- لا استطيع الحديث الآن. أخير والدك ووالدتك فقط أنها بخير، ولا تخبروا احدا بذلك. أعطني رقم هاتفك، وستسمعون أخباراً طيبة في الأيام القليلة القادمة ان شاء الله.

مسحتُ الرسائل بعد أن كتبتُ رقم الهاتف الذي أعطانيه على ورقة صغيرة، ألغيت حساب «فيسبوك»، وأقفلت الصفحة.

- فاطمة! هل جَهُز الطعام؟ أكاد اموت جوعاً.
- نعم، جاهز. سأصبه الآن.

جلبت فاطمة طعام الغداء وجلسنا نتناوله سوية. سألت عمّا اذا ردّ أحد على الرسالة. أخذتُ وقتي ألوك اللقمة في فمي وأنا أنظرُ اليها تتحرق لسماع الجواب.

- نعم، ردّ أخوكِ..
- و..؟! هل هم بخير؟ والدي؟ والدتي؟ أين هم؟
- نعم، نعم، كلّهم بخير. هم في مأمن. يعيشون الآن في مدينة دهوك.
- هل يمكنني أن..
- كلا، ليس الآن. لقد طمأنتهم على حالكِ، وها انت قد اطمأننت على حالهم.

أخذت كفي بين كفيّها الصغيرين والدموع تسيل على خديّها، «لا أعلم كيف يمكنني شُكرك..»

- يمكنك شكري باكمال غداءك.
- حسناً.

أكملنا الغداء وفاطمة تضحك عبر دموعها بين لحظة واخرى وتنظر الي بعينين مليئتين بالامتنان. أعادت ضحكاتها الى ذاكرتي حديثي معها عمّن فعل بها ما فُعل بها. عندها لمعت في رأسي فكرة صافية لا يشوبها كدر، عندها أدركت أننا «نحن» من فعل بها هذا، لم يفعل الله بها شيئاً، وها أنا احاول التعويض عمّا شاركتُ في فعله. لقد كان توقيت تلك الفكرة ممتازاً، ففي ذلك الحين كان الإيمان الذي إدّعيتُ التخلي عنه أصلبُ ما يمكنني التدرع به. سمعتُ فاطمة عصر ذلك اليوم تُدندن لحنا سعيدا وهي تجوب أنحاء المنزل بنشاط طفلة تلعب وترقص مع رفيقاتها في باحة المدرسة. فزادت دوافعي في تنفيذ خطتي واحداً.

لإستكمال خطتي، كان علي التحدث الى أبي سعد بشأنها. أرسلتُ اليه اخبره بضرورة أن نلتقي ونتحدث، وأجابني بأنه مشغول ولا يستطيع لقائي ذلك اليوم ولكنه سيأتي صباح اليوم التالي. جلستُ طوال ذلك اليوم أفكّر في ما سأقوله لأبي سعد، وكيف سأقوله، وفيما اذا سأستطيع اقناعه بما عزمت عليه، وبعواقب اخباره بنيّتي في حال كان ما اظنه بأبي سعد خاطئا. أمّا فاطمة فلم تزل طرِبة لسماع اخبار اهلها، حتى أنها لم تعد تقسو علي بكلماتها كما كانت تفعل سابقا. بتُّ تلك الليلة أُنعِم التفكير في الحياة، انها

لعبة احتمالات، ولكل قرار نتخذه عاقبتان، وكان لقاء اليوم التالي احد تلك القرارات التي تحتمل النجاح والفشل، وعواقب كلّ من النتيجتين. لم أؤمن أنّ الدعاء يُغيّر ما ستؤول اليه الأمور، ولكني موقن أنه يعطي حافزاً وشعوراً بالقوة. يعطي الدعاء شعوراً بأنك لست وحدك؛ ولذلك فقد كان هذا دعائي:

اللهم وفقّني لما فيه الخير. فإن لم أكن أستحق الخير، فوفقني لما فيه الخير لهذه المخلوقة المسكينة.

أفقتُ صباح اليوم التالي وفي نفسي اقبال على الحياة ورغبة في خوض غمارها لم أرهما فيّ قبلا. كانت تملأني قوّة غريبة تجعل صدري يصرخ:

هيّا! فليقبل ما هو مُقبل. أنا مستعد!

أعددتُ ذلك الصباح طعام الافطار لي ولفاطمة. انتظرتها حتى استيقظت وتناولنا طعام الإفطار سوية.

- ماذا بك؟ تبدو نشيطاً على غير عادتك.
- لا شيء الا الخير. اليوم يوم مهم، ادع لي أن تسير الأمور كما أريد.
- عساها تفعل! ان كان ما تريده خيراً.

- هو خير.

تذكّرت أنني لم أضع والديّ في حسابات خطتي. ماذا سيكون شعورهما؟ ربما يظنّان أن ابنهما الوحيد ميت. يا له من شعور مُرهِق، ألا تعرف شيئاً عن انسان عزيز عليك؛ فلا هو ميت لتحزن وتنسى وتسلي نفسك بذكراه، ولا هو حيّ تعرف أنه يعيش هانئا في مكان ما. هل أتصل بهما؟ لا، ليس الوقت مناسباً. سأتصل بهما، ولكن ليس الآن.

فُتحَ الباب الخارجي ودخل أبو سعد. استقبلته في المطبخ، وبعد تبادل التحايا صببتُ لنا الشاي وذهبنا الى غرفة المكتب.

- هات، ما عندك؟
- لا اعرف كيف أبدأ.
- ابدأ من البداية.
- اريد أن اعيد فاطمة الى أهلها.
- توقّعت أن تطلب هذا الطلب يوماً ما، الا أنني لم أتوقع أن تفعل ذلك بهذه السرعة. لا، وليس الأمر محلّ نقاش.
- انظر، أعلم أنك رجل عقلاني وتحتكم الى المنطق. اسمع مني أولاً، ثم احسب المحاسن والمساوئ مثلما تفعل في جميع الامور.
- حسناً، أسمعني منطقك.

- أنت قلت ان عليّ اتّباع التعليمات وابقاء فاطمة عندي حفاظاً على حياتي، صحيح؟
- نعم، ذلك صحيح.
- ذلك يعني أن المخاطرة تمسّني أنا وحدي ولا شيء عليك.
- نعم بالطبع، أخبرتك بذلك لسلامتك.
- وأنا الآن أعرف أنّ سلامتي تكمن في اعادة فاطمة الى أهلها. فليس بإمكاني مواصلة الاشتراك في هذه الجريمة بعد الآن. إنّ اعادتها أصبحت مسألة وقت وكيفية، وقد لجأت اليك لأنني أعرف أنّ بإمكانك نصحي وارشادي الى الطريقة الصحيحة لفعل ذلك، وربما ساعدتني لأقوم بالأمر من دون مشاكل.
- لا يمكن القيام بهذا الأمر من دون مشاكل.
- حسناً، حسناً، لأقوم بالأمر وتكون عواقبه عليّ وحدي، ولا يتضرر أحد سواي. أنت قلت أننا جميعنا نتحمل المسؤولية، ولهذا فأنا سأتحمل مسؤولية قراري كاملة. أعرف أنّك لا ترغب في ابقاءها، أو غيرها، على هذه الحال. وأعرف أنها بالنسبة لك مجرّد أضرار جانبية لابدّ منها، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لي.
- أتحبّها؟

- هل يجب على الانسان أن يُحبّ انساناً آخر لكي يعامله بانسانية؟!
- انك تحبها. أسمعني خطتك.
- أعرف أن ليس بالإمكان ايصالها الى مكان آمن عبر خطوط التماس مع اقليم كردستان، ولذلك احتاج لايصالها الى داخل الحدود السورية، الى حيث كنتُ أسكن قبل مجيئي الى هنا. لدي هنالك اناس أثق بهم، وأظنّ أنهم يستطيعون اخراجها من مناطق سيطرة التنظيم الى تركيا مثلا، وثم الترتيب لاعادتها الى اهلها. أحتاجك في ايصالها الى سوريا.
- وتريد جرّي أيضاً الى الاشتراك معك؟!
- لن تكون مشتركاً في شيء. سأتلقى أنا وحدي كامل اللوم. اوصلني الى هناك وسأعود معك الى هنا، وأتحمل كامل المسؤولية أمام التنظيم وسأنفي علمك أو صلتك بأيّ مما فعلته.

نهض أبو سعد عن الكرسي وأشعل سيجارة وهو يحدجني نزولاً وصعوداً.

- حسناً، لقد أوضحتَ وجهة نظرك ببراعة. آتيك غداً لنكمل الحديث. لدي الآن اجتماع مهم وعلي المغادرة.

خرجَ سريعاً دون أن يُلمّح الى ما سيفعل. ولم أقرأ في وجهه أي تعبير. هل عليّ الانتظار أملا في موافقته؟ هل علي الهرب وأخذ فاطمة معي؟ أين سأذهب بها؟! هل سيسلمني الى التنظيم، وربما لأبي الرضوان، أم أنه سيساعدني في مسعاي؟ لم أدر فيم أفكّر، لم أدر ماذا أفعل.

وقفتُ في الحديقة ساعة ألتمس دفء شمس العصر الخجولة. كانت مسامات وجهي تعتصر ذرات الهواء فترتشف منها ذريرات الحرارة. لم يسر حديثي مع أبي سعد بالطريقة التي اردتها، فقد كنت أنتظر منه جواباً صريحاً، موافقة كان أم رفضا. ولكنه لم يبح لي بما ينوي فعله، فجعلني أترنح بين أفكار الانتظار، نفس الانتظار الذي عانيته حينما كنت أرقب ظهور نتائج القبول للكليات. هل سيتم قبولي؟ هل سأُرفض؟ ماذا سأفعل عندما يتم رفضي؟ فكرّت بالاتصال بوالدّي واخبارهم بكل ما حدث لي منذ عودتي الى العراق، أن أسمع بكاء والدتي وهي تندب حالي فتبعث فيّ الشجاعة وأبكي أنا أيضا وازيح بعض الحمل عن صدري. أسمع والدي وهو يطمئنني ويخبرني «إنّ بعد العُسرِ يُسرا»، أن يهبني مشورته، أن يُغدق عليّ بعض الحكمة التي صبغت شعره فأحالت خصلاته بيضاء ورماديّة. لكنني تمالكتُ نفسي، وقررت ألا أقوم بأي خطوة حتى ألتقي أبا سعد في اليوم التالي واعلم عمق البئر الذي ألقيتُ نفسي فيه.

- كيف سارت الأمور؟

سألت فاطمة وهي تتناول طعام العشاء. كنتُ اجلس معها ولكني لم أكن آكل شيئاً، وكيف أستطيع! كانت الأفكار تملأ رأسي، وشعور بالغثيان والقشعريرة يتنقّل في باقي اجزاء جسدي.

- لا أعلم، غدا سنرى.

تركتها وذهبت الى غرفتي. كان الوقت لا يزال مبكراً على محاولة النوم، فأخذت أقرأ في أحد كتب علي الوردي. كانت كلمات علي الوردي تبعث فيّ الهدوء دائما؛ ربما لأنه يتكلم عن «الآخرين». أحسّ عندما أقرأ كتاباته بأنه يخاطبني، يُفضفض لي، يخبرني بهمومه التي سببتها عقول الناس وطريقة تفكيرهم، فيبعث فيّ الإحساس بأني لست واحدا منهم. يبعث فيّ الإحساس بأنني صديقه الذي يبادله الآراء عن الآخرين فيغمرني شعور بأفضليتي وانحطاطهم، بقدرتي وعجزهم، بانفتاحي وتقوقعهم.

كان الصباح كئيباً يسوده الحزن، والشمس لا تكاد تهرب من غيمة حتى تقع في فخاخ غيمة اخرى. ومع أنّ الشتاء كان قد ولّى منذ أشهر، ومن بعده ولّى الربيع، إلا أنّ رعشة صغيرة كانت تضرب الجزء العلوي من جسمي بين حين وحين، مما أجبرني على اغلاق نافذة غرفة المكتب. كنتُ

أجلس أمام الحاسوب أتصفّح الإنترنت وأدخّن السجائر وأقضم أظافري مثل مدمن ترك مادة ادمانه مكرها. لماذا تأخر أبو سعد؟ لكنه قال أنّه سيأتي «غداً»، ولم يقل متى في الغد. الا يعلم أنّ «غدا» كلمة واسعة تمتد لأربع وعشرين ساعة؟! كان عليه أن يكون أكثر دقة. أيظنّ أن ليس لدي ما افعله سوى انتظاره؟! ولكن، ليس لديّ ما أفعله سوى انتظاره، فجميع ما يمكنني فعله متعلّق به.

ظننتُ أني سمعت صوت طرق على الباب الخارجي ولكني لم أكن متأكداً فأعرته أُذنا صمّاء. جاءت فاطمة، وقفت عند باب غرفة المكتب وأخبرتني أن الباب الخارجي يُطرق. هل آخذ المسدس معي؟ لو كان أبو سعد لكان دخل. ربما هم رجال «الحسبة»، أو فرقة خاصة جاءت لأخذ فاطمة منّي، وأخذي أنا أيضا وتأديبي. يا الهي ماذا فعلت بهذه المسكينة! كانت تعيش هنا في مأمن والآن ستُجرّ الى حيث لن تقول عن نفسها أنها «سعيدة حظ»؛ وكلّ ذلك لأنانيتي، كلّ ذلك لأنني قررت، دون أن استشيرها وأوضح لها المخاطر المحدقة بها، أنها يجب أن تعود الى أهلها. وأنا؟ ماذا سيفعلون بي؟ وماذا سيفعلون بأهلي؟ فليس الأمر وكأنهم لا يستطيعون الوصول اليهم! فها هم يصولون ويجولون وينفذون عملياتهم في دول العالم العظمى، فكيف في دولتنا الفاشلة هذه! نعم سآخذ المسدس معي، فربما يكونون قد أرسلوا شخصاً واحداً أو اثنين فقط، ويخافان وتراجعان عندما

اهددهم بالسلاح فأشتري لنا بعض الوقت. ولكن ربما يكون ذلك أبا سعد على الباب، فليس وكأنه لم يفعلها قبلا!

أخذت المسدس وأدخلته في حزامي عند ظهري وأرخيت فوقه القميص وذهبت أفتح الباب الخارجي. كان أبو سعد يقف أمام الباب ينظر الى البيوت المصطفة على الجهة المقابلة من الشارع واصابعه تداعب مسبحة صفراء بنفس لون الاصبعين السبّابة والوسطى من كف يده اليمنى. إلتفت الي ودون أية مقدمات:

- مرحبا، لماذا تُريد اعادتها؟
- أخبرتك بالسبب وراء ذلك!
- أعني لماذا طلبت مني اعادتها هي، ولم تتطرق الى أن أُخرجك أنت؟
- لا أعلم.. ربما لأن اعادتها، مع ما تحتويه من مصاعب، أسهل من خروجي؛ ربما لأنني مشترك أصلا في جرائمنا وهي لم تزل نظيفة وتستحق فرصة لا استحقها. ربما لأنني اوفي بعهد الولاء الذي قطعته لك في لقاءنا الأول.
- تعرف أنّ هذا الأمر لن تكون نهايته جيّدة بالنسبة لك؟
- نعم، أعرف. وأنا مستعد لتحمّل العواقب.

- حسناً، ما دمت قد فكرّت ملياً في الامر، أكمل ما عليك إكماله واستعد، سيأتيك السائق بعد يومين أو ثلاثة ويأخذكما الى حيث تريد. تُسلّمها للأشخاص الذين تحدثت عنهم، وتعود مع السائق.
- شكراً لك!
- حاول ألا تفسد الامر.
- لن أفعل، أعدك.
- مع السلامة.
- الى اللقاء.

عدتُ الى الداخل ولا أكاد اصدّق أنّ ذلك كان أبو سعد وأنّ ذلك الحديث قد جرى بيننا كما جرى. لم أكد اصدّق أنّ أبا سعد وافق على خُطتي التي بدت مجنونة حتى بالنسبة لي. هل أُخبر فاطمة بهذه الأنباء؟ لم أعتقد أنّ تلك فكرة جيّدة، فلربما طرأ أمرٌ ما وأجلّ أو ألغى العملية وتبقى الفكرة معشعشة في رأسها، وقد تقوم بما يضرّها ويضرّني.

قررتُ أن أقضي اليوم التالي متجولاً في مدينة الموصل، فقد لا أراها مرة ثانية. فأنا أعرف جيّدا حجم المخاطر التي تحيط بمثل هذه الرحلات. فلو فرضنا أنّ سائق أبي سعد يستطيع العبور بنا من خلال نقاط التفتيش التابعة للتنظيم دون مشاكل، يبقى خطر قصف الطائرات الحكومية وطائرات

التحالف التي أثبتت عجزها عن التفريق بين الأهداف المدنية والعسكرية في كثير من الأحيان. ثم إن تمّت رحلة الذهاب بسلام، سيتبقى امامي رحلة العودة. وقد يبدو دافعي في العودة غريبا لكل من لم يعش أجواء الخوف والحرب، ولكنّه يبقى دافعاً معقولا. إنّ عودتي الى الموصل ليست مبنية على الولاء لأبي سعد فحسب، لا بل هنالك والداي أيضاً، فهروبي من التنظيم سالماً قد يعني ايقاعهم الأذى بوالديّ انتقاما مني، أو حتى المساومة عليهما لأعود. إنّ عودتي الى الموصل تعني أنني سأتحمل العقوبة، مهما كانت، وحدي؛ وعلى الرغم من صعوبة تحمّل عقوبات التنظيم، الا انّ هذا الخيار يبقى أهون من عيشي آمناً ألوم نفسي على ما أصاب والديّ. أخبرتُ فاطمة بأن تُجّهز أشياءها وتضعها في حقيبة واحدة لأننا سننتقل الى منزل آخر.

- متى؟ الى اين؟
- لست متأكدا من الإجابتين، ولكن خلال اليومين القادمين الى مكان ليس بعيدا كثيرا. احزمي حقيبتكِ اليوم.
- حسناً.

انهمكت فاطمة في حزم أشياءها حتى موعد العشاء. ذهبتُ بعد تناول العشاء الى غرفتي اخطط اين سأقضي اليوم التالي. بقيت على ذلك لساعات قبل أن يتسلل النعاس الى عينيّ فلم اقاوم وأنخت له.

استيقظت في الصباح ولم تكن فاطمة قد استيقظت بعد، فكتبت لها ملاحظة على ورقة صغيرة ووضعتها في المطبخ الى جانب ابريق الشاي. كتبت لها على تلك الورقة:

صباح الخير!

لديّ بعض الاعمال في الخارج. قد أتأخر حتى المساء. لا تنتظريني على الغداء. لا انتظر أحدا اليوم، فلا تفتحي الباب لأي أحد. ولا تعدي الطعام، سأجلب طعام العشاء معي.

أراك عندما أعود :)

لم أتناول طعام الإفطار في المنزل، فقد قررت أن آكل في اماكن لم اجربها بعد. انطلقت الى شارع «جامعة الموصل» ثم أخذت شمالاً عند نهاية الشارع او ما يسميه أهل المدينة «نفق الجامعة»، وسرت بمحاذاة جدار الجامعة

مروراً بـ «الاعدادية الصناعية» و «الكلية التقنية» ثم «المعهد التقني»، وبما تبقى من آثار «منصة الاحتفالات» حيث كانت تُقام مهرجانات الربيع قبل عام 2003. ذهبتُ نزولاً الى حي «المُثنى» وسوقه وعبرت الجسر القائم فوق نهر «الخوصر»، ثم صعوداً تجاه «دورة سيدتي الجميلة» وشارع «الزهور». خرجتُ الى حيث كان يقف تمثال «حاملة الجرار» قبل أن تزيلها الحكومة لـ «خطورتها». أخذت يميناً فأصبح حيّ «المشراق» على شمالي، وكذلك أصبح «أحمد الحلواني» صانع البقلاوة الشهير. سرتُ قليلا حتى وصلتُ تقاطع «المُثنى» وبقايا أعمال الطريق المُجسّر الذي كان قيد الانجاز عندما سيطر التنظيم على المدينة. ركبتُ من هناك وسارت بي السيارة صعوداً ونزلتُ في شارع «الدركزلية» عند بداية سوق «النبي يونس»، دخلتُ السوق وقطعته مروراً بباعة الساعات، وعربات الخضار، ومحلات الألبسة التي أصبحت لا تبيع سوى أنواع النقاب والجلابيب النسائية. انتهى السوق عند محلات المأكولات ومطاعم المشويات الصغيرة، وعيادات الأطباء الذين كانوا قد هربوا خوفاً على حيواتهم، ثمّ عادوا خوفاً على حيوات أهاليهم وممتلكاتهم. انتهى السوق وأمام عيني منظر خزّان الماء عند مقبرة النبي يونس والى اليمين قليلاً أطلال جامع النبي يونس. ركبتُ مرّة أخرى وترجلتُ في جانب المدينة الأيمن عند بناية «الإعدادية الشرقية» فمشيتُ تحت قناطرها وتناولت طعام الإفطار في رأس شارع «حلب» حيث

المطاعم التي تقدّم ما لذّ وطاب مما يؤكل صباحا. ملأت معدتي وواصلت السير عبر شارع «حلب» حيث محلات صانعي الأحزمة الجلدية، وباعة الملابس الداخلية. أخذت يميناً في منتصف الشارع متوجها الى ساحة «باب الطوب» المخصصة للحافلات ومنها، عبر ممر ضيّق، الى شارع «الدوّاسة» مجمع الشباب، حيث ازدهرت فيما مضى بمحال التسجيلات، ومقاهي الشيشة، وعربات بيع أشرطة واقراص الأغاني والأفلام «الرومانسية» التي لا تُباع إلا للمعارف. أمّا الآن فقد أصبحت «الدواسة» مكان مأكل، ومشرب، وشراء ملابس؛ لم تعد تحتوي خصوصيّتها السابقة في كونها مكاناً يرتاده «المراهقون»، و«الجريئون»، و«الساقطون». فالمراهقون محبوسون في منازلهم، وقد فقد الجريئون جرأتهم وتخلوا عنها مقابل حياتهم، والساقطون لم يعودوا يأتون الى «الدواسة»، فهم الآن قد يقطفون ثمار سقوطهم موظفين ثابتين في دواوين دولة التنظيم؛ لم يتغيّر فيهم الا ثيابهم وشعر وجوههم. ذهبتُ الى بقايا «جامع النبي جرجيس»، وزرت أطلال «جامع النبي شيت» وأبطأت الخطى أمام «كنيسة الساعة» المهجورة. أطلت الوقوف عند «الجامع الكبير» ومنارته «الحدباء» التي أستعارت المدينة اسمها؛ الجامع الذي أراد التنظيم تفجيره هو الآخر لولا وقوف أهل المدينة في وجهه معارضين. كان عليّ الدخول الى أقرب الجوامع عند كل أذان وأداء الصلاة، أو التظاهر بذلك، لتفادي مساءلة رجال «الحسبة» ومحاسبتهم لي.

ليس الأمر أنني لم أزل أحمّل الله مسؤولية أفعال الإنسان ولذلك أرفض الصلاة له. لا، فقد أيقنت أن ما يحدث للإنسان يتحمّله الإنسان وحده. وكما أننا نستطيع احداث الضرر، فإننا نستطيع تجنبه أو اصلاحه، فها أنا احاول اصلاح ما شاركت في افساده؛ أمّا الايمان بالله، الإيمان بأي إله، ليس هو الذي خلق رغبة الاصلاح داخلي، فها هم أولاء جنود التنظيم يؤمنون بالله، أو يظنون ذلك على الأقل، ويفعلون ما لا يستطيع تصوره عقل، وقد فعل مثلهم الكثيرون ممن آمنوا بآلهة او ممن لم يؤمنوا بأي. أعرف جيّدا أنّ ايماني بالله أقرب ما يكون الى دفعة معنوية، الى تربيتة على كتفي تخبرني أنّ أجر عملي محفوظ في مكان ما، تُخبرني أنّ محاولتي في الإصلاح لن تذهب سدى حتى وإن باءت بالفشل. لم أستطع الى الآن فهم اولئك الذين يربطون الأيمان بالله بأداء الصلوات، لم أستطع فهم كيف أنهم يعتبرون من لا يؤدي حركات معيّنة بكيفيّات يرونها هم صحيحة كافراً بالله ونعمه فيما يمكن أن يُغفر لمن يُزهق الأرواح البريئة. نعم، أنا اؤمن بالله؛ ونعم، أعرف أنه طلب من المؤمنين به أداء الصلاة، كلٌ حسب دينه، لكني لا اؤمن ولم يتبادر الى معرفتي أنه قد طلب من بعض الناس أن يكونوا رقباء على البقية فيكرهونهم على أداء الصلاة أو فعل غير ذلك مما يجتهد اولئك في اضافته ليتباهوا بتدينهم. إنّ ذلك لَسبب وجيه في تظاهري بأداء الصلاة وعدم تأديتها. وليست المسألة تتعلّق بالمبادئ، فالأمر ببساطة أنني لا اريد فعل

ذلك، ليس الآن بكل الأحوال، ولكن عليّ إقناع الآخرين بأني أفعله لأن بقاء رأسي متصلاً بجسدي يعتمد، الى حد كبير، على ذلك.

ذهبت الى نفس المطعم الذي أخذني اليه أبو سعد أول وصولي. أخذت منه طعام العشاء وعدت الى المنزل. ربما يبدو الأمر شاعريا: أن أتناول وجبتي الأولى ووجبتي التي قد تكون الأخيرة في المدينة من نفس المكان. ولكن لا يمكن التغاضي عن الطعم الذي يتركه تناول الطعام من ذلك المكان في ذاكرة اللسان، لا يمكن التغاضي عن الرائحة التي يتركها خليط البصل والسمّاق المعبّق برائحة الكباب، والمعلاق المشوي في ذاكرة الأنف، ولا التغاضي حتى عن ملمس أرغفة الخبز وهي تتلوى بين صفي الأسنان وتتقلب بين جنبات الفم. تناولنا العشاء وفي عينَي فاطمة الكثير من الأسئلة التي أبقتها سجينة العينين العسليتين. كنت أتوقع حضور سائق أبي سعد صباح اليوم التالي، فسألتُ فاطمة عمّا اذا كانت قد اكملت ترتيب اشياءها فأجابت بالايجاب. طلبت منها أن تنام مبكرّة فقد يكون موعد رحيلنا اوائل الصباح.

لم يأت سائق أبي سعد قبل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. دخل الى المطبخ ودفأ الشاي، صبّ له كوباً وأخذه الى الحديقة في انتظاري وفاطمة. ارتديت ثيابي وأخذت معي سترة اضافية على الرغم من دفء ذلك اليوم.

لم أكن أحمل شيئا غير تلك السترة. ذهبت لآخذ حقيبة فاطمة وأضعها في السيارة.

- أين حقيبتك؟
- ها هي.
- هاتِها لأضعها في السيارة.
- ألن تأخذ أشياءك؟!
- لا، سيأتون بها لاحقا.

بدت فاطمة في ريب من قصة انتقالنا الى منزل آخر وظهرت على ملامحها علامات الخوف فحاولتُ الهاءها عن تلك الأفكار.

- هل تذكرين أول مجيئك هنا؟ كنتِ ترتدين الثياب نفسها، هذه العباءة نفسها، وكذلك غطاء الرأس والوجه.
- نعم، ويراودني نفس الشعور بالاختناق. وكأنّ سجناً واحداً ليس كافياً فيكون عليّ أن احبس وجهي وأنفاسي أيضاً!
- عسى أن تتغيّر الأحوال، وتتخلصين انتِ وجميع المساكين من سجونكم. هيّا الآن، علينا الذهاب.

خرجنا مباشرة الى السيارة وركبنا في انتظار تأكد السائق من إقفال أبواب المنزل. ركب السائق في مقعده وبدأت الرحلة. لم يتحدّث أيٌ منا خلال الطريق، وفيما كان السائق يبدو معتاداً على مثل هذه الرحلات، كانت علامات القلق والتفكير بادية على وجهي ووجه فاطمة. وأظنّ أنّ فكر فاطمة كان مشغولا في محاولة توقّع وجهتنا، أمّا أنا فقد كنتُ افكر في الخطوات القادمة، وعلى وجه الخصوص الخطوة التالية لتوصيل فاطمة وتسليمها ثم عودتي الى المدينة. لم تُصادفنا مشاكل تُذكر في طريق الذهاب الى سوريا، فلم يقف في طريقنا الا عدد من نقاط التفتيش التابعة للتنظيم التي اجتزنا أسهلها بالسلام وبعض الكلمات، فيما اضطّر السائق لإخراج ورقة عليها اختام كثيرة بألوان مختلفة لعبور نقاط التفتيش الاكثر صعوبة.

لم نتوقف في الطريق، ووصلنا غايتنا بعد ساعات قليلة. نزلتُ من السيارة وفتحتُ الباب الخلفي لتنزل فاطمة فيما أحضر السائق حقيبة فاطمة من السيارة.

- كم من الوقت تحتاج؟

سألني السائق.

- لا أعلم، ساعتين، ربما ثلاث.

- حسناً، سأعود لأخذك بعد ثلاث ساعات.

ركب السيارة وانطلق.

- ماذا يحدث؟ أين نحن؟

سألت فاطمة، وأكاد اميّز الرعشة في صوتها وربما بعض البكاء الذي غطاه الخمار على وجهها.

- ستعلمين بعد قليل.

«عمو استاذ! عمو استاذ»، جاء ابن مضيفي راكضاً من بعيد.

- كيف حالك حمودي؟
- بخير، عمو استاذ.
- اين بابا؟
- عند الجيران.
- وماما؟
- في الداخل.
- ادخل ونادها.

«ماما، عمو الأستاذ في الخارج مع امرأة تلبس الأسود»، خرجت زوجة مضيفي مرحّبة تدعونا للدخول. دخلنا وجلسنا في غرفة المعيشة فيما ارسلت ابنها لينادي والده ويعلمه بحضوري. جاء مضيفي وبعد الترحيب وبعض أحاديث الحنين، طلب من زوجته أن تأخذ فاطمة لترتاح قبل جهوز الطعام. أخبرتُ مضيفي بأهمّ الأحداث التي حصلت معي منذ رحيلي، وأخبرته بسبب مجيئي وحاجتي له، وأنّه الوحيد الذي أثق به ليعيد فاطمة الى أهلها. أخبرني بأن في الأمر صعوبة ولكنه يستطيع تدبر الأمر بالاتفاق مع من يثق بهم من المهربين. سألني مستغرباً كيف يمكنني التفكير بالعودة، ولمَ لا انضمّ الى فاطمة فيقوم بإخراج كلينا من مناطق سيطرة التنظيم. حاولت جاهداً افهامه مدى صعوبة الأمر، فلم يفهم، فعفت المحاولة واخبرته بأنني لا استطيع فحسب. قضيتُ الكثير من الوقت الثمين في اقناع مضيّفي بأخذ بعض النقود التي لابدّ سيحتاجها في عملية اخراج فاطمة الى تركيا. لم يأخذ النقود حتى تأكد أنّ لدي الكثير منها وأنني لا احتاجها كما سيفعل هو.

تناولنا طعام الغداء ثمّ أخذتُ فاطمة الى الغرفة التي كنتُ أسكن فيها، وحدثتها عن جوانب من حياتي في منزل مضيّفي، وقريته. أخبرتها كيف أنّ لقب «الأستاذ» بدأ من هذا المنزل.

- أنا سأرحل بعد حوالي ساعة.

- وأنا؟!

تساءلت والخوف قد خيّم على وجهها وكتم أنفاسها وهي تنظرُ الي وأنا اكاد أدمع وعلى وجهي ابتسامة عريضة.

- أنتِ ستمكثين هنا مع مضيّفي وعائلته يوماً أو اثنين حتى يدبّر أمر اخراجك الى مكان آمن وتتصلين بأهلك فيأتون لأخذك.

بدأت فاطمة البكاء ولم تسكت. تقدمتُ اليها، وبعد تردد وضعت كفي على رأسها اداعب شعرها. هل كانت تلك دموع الفرح؟ هل كانت حزينة على فراقي؟ لم أعلم. أخرجتُ من جيب سروالي قصاصة الورق التي كتبتُ عليها رقم الهاتف الذي اعطانيه اخو فاطمة وأعطيتها لها. أخبرتها بكافة التفاصيل وأعطيتها من النقود ما يكفيها لشهرين أو ثلاثة. كنتُ أطمئنها الى أنّ جميع الأمور مرتب لها بصورة متقنة، وألا خوف عليها وأنها ستصل سالمة عندما فاجأتني فاطمة، نهضت من جلستها المعتادة على ركبتيها وقفزت نحوي وأخذت جسدي في أحضانها وواصلت البكاء على صدري. كانت المفاجأة ثقيلة حتى أنني لم أحتضنها إلا بعد ثوان عديدة. وضعت يدي حول خصرها وأخذت أطبطب على ظهرها باليد الأخرى. لم أقل شيئاً حتى نطقت هي من خلال بكائها:

- وأنت؟
- ما بي؟
- لماذا لن تأت معي؟
- لا أستطيع. علي العودة.

رفعت وجهها وكان قد أدماه البكاء وصبغ على خديها جدولين أسودين من كحل ودموع. وضعت تلك العينين العسليتين في عينيّ وسألتني بنبرة ملؤها الالتماس والتوسل:

- ولكن لماذا؟! لماذا لا تستطيع؟
- ليس كلّ ما يتمنى المرء يدركه.

نادت علينا زوجة مضيّفي لنتناول الشاي.

كتبتُ الأسطر الأخيرة هذه على عجالة في وقت استرقته لنفسي قبل أن اعطي دفتر المذكرات الذي يحتويها لفاطمة. طلبتُ منها أن تعدني بألا تفتح الدفتر الذي سأعطيها اياه او تعطيه لأي مخلوق حتى تكون بمأمن وأكون أنا قد عدت الى الموصل، فوافقت على ذلك.

في الطريق الى هنا كنتُ افكر في ما سأفعل عند عودتي الى الموصل، وقد تخمّر في رأسي أمران لست أدري أيهما سأفعل. امّا الأول فأن أذهب الى المنزل وبعد كأس شاي وعدة سجائر، أن أجلس في غرفتي بين الكتب وأستخدم المسدس فأضع حداً لحياتي. وبذلك يخسر التنظيم أحد «المهاجرين الأوائل»، ويكسب اهل المدينة بنقصان المخبرين واحداً، وأكسب أنا عدم الاضطرار الى تحمل أوزار جرائم جديدة، وكذلك اقفال قضيتي بالانتحار فيكون والداي بعيدين عن أي خطر. وأمّا الثاني فهو العودة الى المنزل وأخذ المسدس بعد حشوه والخروج الى نقطة التفتيش القريبة الى منزلي، ومحالة قتل الاثنين الواقفين فيها فيكسب أهل المدينة بمقتلهما نقصان المجرمين اثنين. فإن متّ فهو مكسب للجميع، وإن لم أمت اواصل مهمتي نحو نقطة تفتيش اخرى.

صحيحٌ أنني لم اكن لأُزهق روح انسان بيديّ، ولكنني قد ساعدت من فعلها، وبالتالي فقد فعلتها. والاختلاف في الخيارين الذين اتخذتهما هو أنني أنا الذي اقرر الآن من يستحق ان تُزهق روحه أو لا، إن كانت تلك الروح روحي او لأحد زملائي من جنود التنظيم. ها انا قد قررّت استعادة زمام السيطرة على حياتي، ها انا اقرر ما سأفعل، واقرر تحمل مسؤوليته. ليس لدي ما اخسره، ولكن لديّ الكثير لأكسبه، على عكس شباب المدينة الذين لديهم الكثير وفضّلوا عليه المخاطرة لأجل العيش في مدينتهم بحريّة

فأخذوا يقاومون التنظيم فرادى وجماعات، بالسلاح وبالفكر. ها أنا اتحمل المسؤولية، فليبتهج أبو سعد. ها أنا اكفّر عن ذنوبي، فلتسعد فاطمة. ها انا اقرر الوقوف في وجه ظالم بخلاف ما فعلتُ عند هروبي من بغداد. إنها معركتي الأخيرة في حرب طويلة قضيتها بين الهزائم والاستسلامات.

طلبتُ من مضيّفي الاتصال بوالديّ واخبارهم بما يراه مناسباً، فقد خشيتُ على جرأتي في تنفيذ قراري أن تغسلها عنّي دموع والدتي وتوسلات والدي.

أخبرتني «فاطمة» باسمها الحقيقي عندما كنا نجلس في مزرعة مضيّفي تحت شجرة الزيتون المريضة. أخبرتني باسمها بعدما استكانت الى حقيقة أنني لن اذهب معها. جلسنا في المزرعة نشاهد الكلب يركض جيئة وذهاباً بين أطفال مضيّفي. احتضنت ذراعي وهي تقصّ علي بعض قصص طفولتها والحوادث الطريفة التي مرت بها في المدرسة والجامعة. سألتني عن اسمي فأخبرتها ضاحكاً أنّ اسمي «الأستاذ»، فلم أظنّ أنّ الأسماء مهمة. لم أظن أنّ ما حدث لي ولفاطمة الا نزر يسير مما يحدث يومياً في تلك الأرجاء. ليست القصة عجباً عجاباً مرهونة بشخصين، إنّها قصّة الناس، قصّة البلاد، إنها قصّة المدينة وأهلها.